الكتاب الحادي والسبعون

الـذات الإلـهي

تعريفه ـ صفاته ـ رؤيته

الحقائق الواجب معرفتها عن الله

القس صموئيل مشرقي

الكتاب الحادى والسبعون
الحقائق الواجب معرفتها عن الله

الـــذات الإلهـــى
تعريفه ـ صفاته ـ رؤيته

THE DIVINE PERSONALITY
Definition - Attributes - Vision

تقـديـــم
القس صموئيل مشرق
رئيس المجمع العام
لكنائس الله الخمسينية
بكالوريوس لاهوت

صدر فى ابريل ١٩٨٩
من الكنيسة المركزية للمجمع ٨ شارع أحمد باشا كمال جزيرة بدران
شبرا مصر ــ تليفون : ٧٧٥٦٧٦

مقدمة الطبعة الثانية

لما كان نور العقل وحده لا يكفى لمعرفة الحقائق الإلهية عن « الذات الإلهى » كان لازما أن يأتينا إعلان « الوحى المكتوب » ، إذ ما كان الله ــ جل شأنه ــ ليتركنا نسير على غير هدى ، لذلك أرسل لنا نوراً كاشفاً فى كتابه الكريم ليعلن لنا طريق الإهتداء إليه .

ومن واجب عقولنا أن تقبل هذا « الإعلان الفائق » وتخضع له بفعل الإيمان » ، ولذلك أطلق الوحى على مجمل العقائد الأساسية التى تدور حول « ذات الله » إسم « إيماننا الأقدس » وهذه تسمية مباركة لعقائدنا اللاهوتية الجوهرية التى يتكون منها « سر الإيمان » .

وإذ قد اشتدت الحاجة إلى إدراك مضمون هذا « السر المقدس » قمت بدراسة هذا الموضوع الجليل الفائق الأهمية الذى يتوقف عليه خلاص نفوسنا ، مما يستوجب ضرورة الوقوف على حقيقة ما يحتويه ، على الوجه الصحيح وبأكمل درجة ممكنة لنا بقدر ما فى استطاعة عقولنا أن تدرك منه فى هذه الحياة الحاضرة القاصرة . وتلك هى الغاية من إخراج هذا الكتاب .

ولما كانت جميع النسخ التى طبعت عام ١٩٦٢ فى الطبعة الأولى نفذت فور صدورها تقديراً لقيمة هذا البحث كان إعادة طبعه فى هذه الطبعة الثانية من ألزم الوجوبيات ، هذا وقد آثرنا رفع الجزء الخاص بالوحدانية من هذه الطبعة لسابق نشره فى كتابنا « الإلهيات » فى طبعته الثانية الصادرة فى عام ١٩٨٧ .

وفقنا الله سبحانه لما فيه مرضاته ،

المؤلف

إيماننـــا الأقـــدس

« نؤمن بوجود الله الروح السرمدى البسيط اللطيف غير المتغير وأنه واحد فى الذات بلا تقسيم ولا تركيب وواحد فى الصفات بلا تفريد أو استقلال ، وذلك بسبب وحدانية الجوهر الإلهى الذى لا تعدد فيه ولا تحديد .

وكذلك نؤمن بأن صفات الله تعالى مطلقة تختص بكماله الذاتى غير المحدود بحسب طبيعته الجوهرية ، وان بعضها يبين نسبة علاقاته بالوجود المطلق ، والبعض الآخر صفات أدبية على وجه الكمال التام تتجلى فى كافة معاملاته مع الكائنات .

كما نؤمن بأن جوهر اللاهوت لا تدركه الأبصار ولا تراه العيون ، إذ هو فى نور لا يُدنى منه ؛ ولذلك فقد اتخذ اللاهوت حجاباً من الناسوت فظهر الله فى الجسد حتى لا تستحيل رؤيته »

البـــــاب الأول
تعريف الذات الإلهى

الأسماء الإلهية :

للهتعالى أسماء قدسية واردة فى الكتاب المقدس تعلن لنا طبيعته ومتى اختبرنا معانيها ومكنوناتها نصبح من « عارفى اسمه » (مزمور ٩ : ١٠) وأسماؤه عديدة لأنه لا يمكن لاسم واحد أن يعبر عن شخصه العظيم وصفاته التى تُعّبر كل اسم له عن صفة منها كامنة فى ذلك الاسم وهذه الاسماء بحسب ترتيبها الذى جاء به الوحى هى كالآتى :

١ ــ اسم (الله)

هذا الاسم تسمية سامية خاصة تخص جلاله تعالى بحالة مطلقة بدون أن يشاركه فيه أى كائن آخر لا يجوز ولا ينبغى لغيره أن يتسمى بها وهو أول اسم من أسمائه ونحن نجده فى العبارة الافتتاحية للكتاب المقدس ــ فهو (الله) قبل الخليقة لذلك خاطبه موسى النبى بالقول (منذ الأزل إلى الأبد أنت الله) (مزمور ٩٠) ويقرر الرسول بولس : (أنه الله بالطبيعة وليس كالآلهة) (غلاطية ٤ : ٨) أى أن طبيعة وجوده الفريد تدل على أنه الله !!

ويقول بعض علماء اللغة العربية أن اسم (الله) مشتق من الفعل (أله) وقد دخله لام التعريف فصار (الإله) وحذفت الألف الوسطى منه لكثرة الاستعمال فصار (الله) كما يقولون أن هذا الفعل (أله) يعنى (عبد) وبعضهم يجعل معناه (سكن) وبناء عليه يكون معنى لفظه (الله) لديهم (المعبود) أو (الذى تسكن إليه القلوب)

وهذا الاسم (الله) هو ترجمة لفظه (الوهيم) العبرية وقد وردت فى العهد القديم ٢٥٠٠ مرة وهى بصيغة الجمع ومفردها (ألوه) التى تترجم (إله) ومعناها من العبرى (الذى ارتبط بقسم) ويشتق منها الاسم العبرى (إيل) وفعله (أول) وهو يدل على الأسبقية والقوة فتفيد لفظه (الوهيم) إذاً معنى (القوى الأمين) وهى تناسب جدا افتتاحية سفر التكوين لأنها تدل على طبيعة الخالق وسلطانه الفائق : ويرى البعض أن لفظة (اللهم) العربية هى بعينها (الوهيم) العبرية .

٢ ــ اسم (الرب) :

هذا الاسم القدوس هو ترجمة لفظه (يهوه) العبرية وهو يدل على صفات مسماه تعالى السرمدية الاستمرارية أى الكينونة الدائمة لواجب الوجود وواضح أن هذا الاسم يدل

على العهد وهو مركز أسماء العهد التى تعلن الله تعالى كالخالق الذى تعتمد عليه خلائقه فى كل شيء ، فهو يهوه المدبر ويهوه الشافى ويهوه القائد ويهوه الراعى ..... إلخ كما هو مبين بأسماء العهد التى سنذكرها فيما بعد .

ويعتبر هذا الاسم هو اسم الذات الإلهية مباشرة فقد جعله تعالى اسمه الخاص ولم يكن يجوز النطق به إلا تحت شروط خاصة وبحالة تامة من الوقار والخشوع ...

ويبرز بين اسماء العهد اسم (يهوه صبؤوت) الذى ترجمته (رب الجنود) وهو الاسم الأعظم الذى تقدسه السرافيم تقديساً ثلاثياً فى تسبيحها الدائم (اشعيا ٦ : ٣) وفيه اعلان لقوة رب الجنود ووفرة أجناده العلوية التى وزعها بترتيب فائق فى مراتب وطغمات وفرق كفيلة بحفظ النظام فى الكون لأن النظام هو القانون الأول فى السماء ــ ويتكون منها جميعا محفلا هائلا بسببه دعى خالقهم (رب الجنود) ! وقد رفع الوحى الستار قليلا لنتمكن من رؤية لمحة من جند السماء غير المنظورين ممن يحيطون بنا لتشجيعنا وحراستنا ... ولقد كان اسم رب الجنود يتجلى فى زمن الحاجة فاستخدمه أرميا ٨٠ مرة وحجى ١٤ مرة وزكريا ٥٠ مرة وملاخى ٢٥ مرة وغيرهم فى بضعة أماكن أخرى متفرقة . ولا شك أن فى كون رب الجنود معنا معونة كبرى وتعزية عظمى !

هذا وقد وجدنا فى اسم العهد (يهوه) اعلانا إلهيا فائقا يعرفه يسوع حق المعرفة ويعلنه استمراريا لمختاريه بحالة تقدمية مجيدة أشار إليها بقوله (عرفتهم اسمك وسأعرفهم) (يوحنا ١٧ : ٢٦) وهذا يفيد الاعلان المتدرج عن هذا الاسم إلى أبد الدهور إذ لا بد لنا أن نجتاز فى مراحل واسعة من أجيال الأبد ليزداد إدراكنا عنه دون الوصول إلى الإدراك الكامل لكنه بالطبع .

٣ ــ اسم (الله العلى) :

هذا الاسم يمثل لنا ناحية فريدة من نواحى عظمة الله إذ أن معناه (المرتفع فوق الجميع مالك السموات والأرض) وصاحب السلطان المطلق فى توزيع جنوده وبنى آدم فيهما . بل وهو أيضا ضابط الكل فإن النظام الطبيعى يسير بحسب أوامره (ناحوم ١ : ٣) وهو الذى يشرف بعنايته على جميع أحوال البشر مع أن عالمنا يشبه نقطة حقيرة بالنسبة إلى الكون الهائل الذى لا يمكن للعقل أن يصل إلى مداه ولا للعين أن تخترق حجبه ووراء أفلاك الكون الدائرة فى فضائها اللانهائى نجد الموضع المرتفع المقدس الذى يسكنه الله (اشعيا ٥٧) حيث يجلس على الكروبيم وتحيط به السرافيم وهو هنا فى هيكل قدسه يصغى لمن

يطلبه ! وقد جاء فى سفر المزامير ؛ « الرب عال فوق كل الأمم . فوق السموات مجده » (مزمور ١١٣) .

٤ ــ اسم (الإله السرمدى) :

وهو فى العبرية (إيل أو لام) ويعنى (السر الخفى أو الغير معلوم) وهو يختص بالسرمدية الوجودية لله بما تحتويه من دهور أزلية وأبدية مخفية عنا . وهذا هو الوجود الإلهى السرمدى الذى لا يحده زمان ولا تحيزه قيود وذلك بحالة يقصر الفكر عن إدراكها ويقف عند حده إذا حاول تصورها فهو وجود مطلق لا يكيفه عقل ولا يصل إليه إدراك .

٥ ــ اسم (الإله القدير) :

هذا الاسم هو صخرة المؤمن وملجأه الحصين إذ أن معناه فى الأصل هو « الذى فيه الكفاية » وذلك لأن تلك القدرة المطلقة هى الضامن لتنفيذ مواعيده الثمينة لأن لها السيادة التامة على كل ما يحدث والتحكم الكلى فى كل ما يمكن حدوثه وفى ذلك التشجيع التام لنا . ومع أن قدرته هذه « ليست قضاء أعمى » إلا أنه من الخطأ والغباء أيضاً انتقاد طرقه تعالى .

٦ ــ اسم « السيد » :

يفيد هذا الاسم الجليل معنى السيادة والحكم وهذا من حقه سبحانه وتعالى لما هو عليه من رفعة وعز ، ولأعمال سيادته نحو شعبه التى توجب عليهم الطاعة والولاء ؛ وهو يمتلك هذا الحق بحسب سموه الفائق المطلق الذى له بمقتضاه حق التصرف التام فى خلائقه بحسب امتلاكه لها جميعها واعتماد كل ما فى الوجود عليه إذ لا ثبات لشىء ما على الاطلاق بدونه !

وأما سيادته على الحوادث فتسمى « بالعناية » وهى على نوعين (عامة) ترتبط بسيادته على العالم وتشرف على الكائنات بأسرها و (خاصة) تظهر فى صياغة التفاصيل الدقيقة لكل حياة على حدة . وهذه الناحية من عظمة الله تستلزم وقتا لإدراكها لأنها تحتم عدم محدوديته باعتبارها الأساس الوحيد لهذا الاشراف بنوعيه العام والخاص ! كما أن العناية الخاصة تتجه أيضا إلى شعبه !!

٧ ــ اسم (الآب) :

وهو متشابه فى العربية كالعبرية ، وقد ورد فى العهدين القديم والجديد وفى معناها الأوسع تعنى أن الله هو علة وجود كافة الأشياء وخالق البشر والملائكة ، حتى أننا نستطيع أن

نقول من جهة الخلق عن جميعها أنها (ذرية الله) (أعمال ١٧ : ٢٨) ومع ذلك فهذا لا ينفى العلاقة الخاصة الفريدة بين أقنومى (الابن) و (الآب) فى اللاهوت بل يحتمها ويميزها عما سبق ذكره . بل وتلك الصلة العامة المشار إليها آنفا لا تتضمن الخلاص والقرب من الله بحسب ما اختص به أبناء الله الذين قبلوا المسيح وأحياهم الروح القدس فشتان بين أبوة الله العامة للبشر باعتباره مصدر الخلق وبين أبوته تعالى لمن قد قبلوا الفداء والجدول الآتى يبين الأسماء الإلهية كما وردت فى اللغة العبرية (الأصلية) المكتوبه بها :

جـــدول الأسمـــاء الإلهيـــة

(١) أسمـــاء الله

١ ــ الوهـــيم ــ وهى المترجمة « الله » ومعناها القوى الأمين وترتبط بالخلق
٢ ــ يهـــوه ــ وترجمتها « الرب » ومعناها « الكائن » وهى تتحد بالعهد
٣ ــ ايـل ايلون ــ وترجمتها « الله العلى » ومعناها « المرتفع » مالك الجميع
٤ ــ ايـل أولام ــ وترجمتها « الاله السرمدى » ومعناها « الأزلى الأبدى »
٥ ــ ايل شداى ــ وترجمتها « الاله القدير » ومعناها « الذى فيه الكفاية »
٦ ــ أدونـــاى ــ وترجمتها « السيد » ومعناها « الحاكم المطاع »
٧ ــ آب ــ وترجمتها « آب » ومعناها « الخالق والمعتنى »

(٢) أسمـــاء العهـــد

١ ــ يهـــوه يـــرأه = الرب يرى : للخروج من المآزق (تكوين ٢٢ : ١٤)
٢ ــ يهـــوه رافـــا = الرب الشافى : لرفع المرض (خروج ١٥ : ٢٦)
٣ ــ يهـــوه نســـى = الرب رايتى : للانتصار على العدو (خروج ١٧ : ١٥)
٤ ــ يهـــوه شـــالوم = الرب سلام : للخائفين المضطربين (قضاة ٦ : ٢٤)
٥ ــ يهـــوه رعـــا = الرب راعى : للغرباء فى الأرض (مزمور ٢٣ : ١)
٦ ــ يهوه تصدقينوا = الرب برنا : للمحتاجين إلى التبرير (أرميا ٢٣ : ٦)
٧ ــ يهوه صبؤوت = رب الجنود : لاعلانه الحراسة الملائكية (أشعيا ٦ : ٣)
٨ ــ يهـــوه شمـــة = الرب هناك : حين يأتى الملكوت (حزقيال ٤٨ : ٣٥)

البـــاب الثـــانى
صفات الذات الإلهى

الفصـــل الأول

١ ــ معنى الصفة

الصفة وصف يبلغك حالة الموصوف ويوصل إلى فهمك معرفة حاله ويكيفه عندك فيوضحه فى فكرك ويقربه فى عقلك .

والصفة لذلك تتبع الموصوف ، وهو لا يكن منها على شىء إن لم تكن فيه ، ومن ثم يستحيل أن تقوم الصفات بغير ذات موصوفة بها ، كما أن الذات لا تدرك بغير الصفات .

والصفات بوجه عام هى معانى معلومة وأما الذات فهى أمر مجهول والمعانى المعلومة بالطبع أولى بالادراك من الأمر المجهول ، فإذا حصل عدم الادراك فى الصفات فلا سبيل إلى إدراك الذات بوجه من الوجوه . لأن مطلق الذات هو الأمر الذى تستند إليه الصفات فكل صفة منها تستند إلى شىء ، وذلك الشىء هو الذات .

ولذلك تدل الصفات على وجود الذات ــ لأن لكل موجود صفات تميزه ؛ وليس هناك شىء بلا صفة إلا غير الموجود . ومن حيث أن الله موجود فهو تعالى ذات ، وبما أن الذات لها صفات كان لا بد له تعالى من صفات يتصف بها وعلاقتها معه علاقة الصفة بالموصوف ، ومن ثم فإن وجود هذه الصفات قائم بوجود الذات .

والصفات نوعان : نوع يوصف به الموصوف لازالة الاشتراك بينه وبين موصوف آخر ، ونوع يراد به مجرد الوصف ــ أما صفات البارى فهى من مرتبة تفوق الوصف كما أنه تعالى ينفرد بها ، ولذلك لا يمكن أن يحيط **بها الادراك ولا غرابة إن كانت مجهولة الكنه ــ لأنه لما كانت الذات الإلهية تفوق التعبير كان من غير الممكن الإحاطة بما لصفاتها**

من مقتضيات الكمال فمعرفة حقيقة ذاته تعالى وصفاته فوق العقل البشرى .

وإنما قد تحققنا أنه من المستحيل عقلاً وجود ذاته تعالى دون أن يكون لها صفات تدل على وجودها ، مع أن صفاته فى نفس الوقت أبعد من أن نستطيع تحديدها . وهذه الصفات ذاتية لا يبطل أن يكون موصوفا بها فى الأزل وإن لم يكن هناك مخلوق يستدل به عليها أو مخاطب : فليس من شروط الصفات الذاتية ألا تثبت لموصوفها حتى يوجد من يوصفه بها فهى صفات ثابتة لا يبطلها جهل من جهلها كما لا يثبتها علم من علمها .

٢ ــ صفات الذات الإلهية :

أجمع الباحثون فى الإلهيات على أن « الله ذات وله صفات قديمة مع ذاته »(١) واتفقوا على إسناد **صفة الأزلية** إليه تعالى باعتباره علة كل شىء فى الوجود ، والعله تسبق المعلول ــ لكنهم اختلفوا فى أمر الصفات الأخرى لأنهم قالوا أن إثباتها لله لا يصح إلا من وجهين أحدهما العقل والنظر والآخر السمع والخبر ولا طريق إلى إثباتها أكثر من هذين الوجهين فكان البارى تعالى فى الأزل قبل حدوث الأشياء منفرداً بالوجود ولم يكن هناك موجود يستدل عليه : لم يكن حينئذ موصوفا بصفة لعدم المخاطبين فلما أحدث الموجودات وقع حينئذ الاستدلال عليه وهذا هو منطق من يقولون بذلك :

ولكن هذا القول يجعل صفاته تعالى محدثة مع الأشياء وبذلك تكون متغيرة ، وواضح أنه تعالى لا يتغير فى أى صفة من صفاته لأنه كامل فى ذاته كل الكمال ، كما أن جميع صفاته أزلية كذاته تماماً . ومن ثم يلزم أن يخبرنا من يقولون بتعذر إثبات أزلية صفات الله : « من أحدثها له ؟ » فإن كان هو الذى أحدثها لنفسه فكيف يجعل نفسه موجوداً من هو معدوم ؛ وشيئا من ليس بشىء ، وحيا من ليس بحى ، وهكذا .. الخ !؟ وإن كان غيره أحدثها له فيكون هناك إلها آخر هو أحق بالعبادة منه وإن كان أحدثها البشر فكيف أحدثوها وهو الذى أحدثهم ، وإن جاز للمعدوم أن يُحدِث فما الذى ينكر من أن يكون العالم هو الذى أحدث نفسه ؟ وكيف يُحدثِ غيره من هو محتاج إلى من يُحدثِ نفسه ؟ وكيف يصح أن يوصف بالأزل من كانت صفاته محدثة وباعتبارها قائمة بالذات تكون ذاته وصفاته محدثات !؟

ولذلك وجب أن تكون الذات الإلهية متصفة بالوجود والقدم والبقاء والوحدانية وسائر

---

(١) تهافت الفلاسفة ص ١٦٦

صفات الكمال . فليس فى هذه الصفات ما يغاير العقل أو يناقض الدين . أما كيفية ممارسة هذه الصفات أزلاً فسنتأملها فيما بعد .

٣ ــ العلاقة بين صفات الله وذاته :

لا شك أن الكلام فى صفات الله فى غاية الصعوبه لأن معرفة حقيقته تعالى جهل واضح بالمطلوب ، لذلك عجزت العقول عن كيفية ادراكه وكلت الافهام عن معرفة كنهه . ومن ثم لم يستطع الباحثون إدراك العلاقة بين صفات الله وذاته وقرروا أنها من المشكلات .

وتبدأ هذه المشكلة عند محاولة إدراك كيفية إجتماع الصفات الكثيرة فى الذات الواحدة . فقد حارت الألباب فى كيفية حفظ وحدة القديم مع وجوب اتصافه بصفات متعددة ، لأن مجرد إسناد الصفات إليه معناه إسناد كثرة إليه بوجه من الوجوه . ولما كانت ذاته واحدة وصفاته كثيرة كان جمعا فى وحدة . لذلك قال صاحب التحقيق : « أرى الكثرة فى الواحد » وقال صاحب المواقف : « حيث صفاته تعالى حقيقية لم يكن هو بسيطا حقيقياً واحداً من جميع جهاته » ص ٣٨٥ وقال آخر « إن الحقيقة الوجودية واحدة فى جوهرها وذاتها ، متكثرة بصفاتها وأسمائها » . فهو من حيث وحدانية ذاته شيء واحد ، والواحد لا كثرة فيه ؛ ولكن أحديته شملت الكثرة المتنوعة من صفاته . وقد أقرت الأشاعرة وجود التعدد الاعتبارى فى الذات العلية إذا ما أريد لصفاته تعالى أن تكون حقيقية فقالوا « أن الله لم يكن بسيطا بالنسبة إلى صفاته » كما شهد لنفس الحقيقة أحد أقطاب الصوفية فقال عنها :

الكل فيها واحد متكثر فاعجب لكثرة واحد بالذات

فهذا التكثر فى الصفات يتنافى مع وحدانية الذات ويؤدى إلى وجود شركاء مع الله أو تركيب فى ذاته والحال أنه منزه عن كلا الأمرين .

ومن ثم فقد تساءل العلماء فقالوا : هل هذه الصفات المتعددة تناقض وحدانيته تعالى ؟ وهل فى تعددها تركيب يمتنع فى حق الله المنزه عن التركيب أم هو تعدد لا يستلزم التركيب ؟ **وقصارى قولهم عن هذه المشكلة هو أن صفات الله متعددة ، وأما الكيفيات فمجهولة ولذلك قال أحدهم : هذا إشكال لم يتأتى لنا حله نسأل الله تعالى أن يهدينا ! »** ومنهم من يمسك عن البحث فى ذات الله وصفاته عند هذا الحد بحجة أن الخوض فى صفات البارى لا يجوز لأنه « ليس فى إمكاننا أن ندرك أحكام البساطة الإلهية التى تعجز العقول عن الإحاطه بها ! » على أن البعض الآخر إزاء العجز عن تفهم كنه هذه الصفات وكيفية

اتفاقها مع وحدانية الذات قال عن صفات الله تعالى « أنها تدل على صفة واحدة هى الكمال وإن هذا الكمال مطلق تعجز عقول البشر عن إدراكه ! »

ويستدل من ذلك على أن التعدد فى الصفات لا يقدح فى وحدة الذات ، يؤكد ذلك قول الشعرانى فى اليواقيت : « أن التعدد الاعتبارى لا يقدح فى الوحدة الحقيقية كفروع الشجرة بالنسبة إلى أصلها أو الأصابع بالنظر إلى الكف » ص ١٨

فالوحدة لا تمنع التكثر من كل الوجوه وليست هى ضده بدليل الاعتراف بكثرة صفاته تعالى التى تسمى « مجموع الصفات الحسنة » أو « أسماء الله الحسنى » وهى تبلغ ٩٩.

وحيث أنه قد ثبت أن الوحدة والتعدد ليسا ضدين بل يجتمعان بالصفات والذات إذن فاجتماعهما فى وحدة الذات مع تعدد الأقانيم أقرب إلى القبول والتسليم ، لأن من يسلم بتلك يجب أن يسلم بهذه أيضاً . وقد قال صاحب المواقف : « لا يجوز إجتماع الوحدة مع الكثرة فى شىء واحد من جهة واحدة » ص ٣٤٢ ومعنى ذلك يجوز اجتماعهما من جهتين مختلفتين ! فلا محل للقول بأن وجود الثلاثة أقانيم يناقض وحدانية الجوهر ! **ومن ثم فإن وحدانية الجوهر الإلهى لا تنفى وجود الثلاثة أقانيم فيه ، وكذلك وجود الثلاثة الأقانيم فى الجوهر الإلهى لا يتنافى مع وحدانيته** !؟ بل أن الإعتقاد بالصفات لا يستقيم له معنى ما لم يرافقه التسليم بوجود الأقانيم ، الأمر الذى نجد فيه حل هذه المشكلة الا وهى كيفية وجود صفات كثيرة فى الجوهر الواحد فقد تضامنت هذه الصفات وتوحدت فى الذات عن طريق تمارسها بالفعل أزلا بين أقانيم الله فى جوهره الواحد !!

ويتضح من العقيدة المسيحية عدم إمكانية تعدد الأقانيم بتعدد الصفات ذلك أنها تميز بين الصفات الذاتية الثبوتية وهى الخاصة بالأقانيم وبين صفات الأفعال فإن تلك صفات فى الذات ثبوتية مطلقة تتصل بطبيعة ذلك الجوهر الفريد وهى عين ذاته أما هذه أى صفات الأفعال فهى صفات تليق بجناب الله ولكنها غير ذاته !!

• • •

وتزداد هذه المشكلة عند البحث فى نوع الصفات التى يتصف بها الله تعالى وهل هى الصفات الإيجابية أم السلبية : ومعلوم أن كمال الله المطلق وهو يعنى استغناؤه بذاته عن كل شىء فى الوجود يستلزم وجود علاقات داخلية فى اللاهوت لأجل ممارسة صفاته أزلاً قبل وجود أى كائن سواه وذلك لأجل إثبات الوجود الحقيقى لهذه الصفات وحتى

يمكن اتصافه تعالى بالصفات الايجابية . ولكن التسليم بهذه الصفات الايجابية وأزليتها يظن فيه أنه يؤدى إلى شرك يتنافى مع التوحيد ولذلك نفى البعض هذه الصفات بحجة أن من أثبت له صفة قديمة فقد أثبت إلهين ومحال وجود إلهين قديمين أزليين ؛ أو أكثر بحسب عدد الصفات الإلهية ، ومن ثم فقد ردوا الصفات إلى أجوال ليس بينها وبين الذات تمييز حقيقى ومنعوا اعتبار قيام الصفات حقيقة بذاته تعالى لأنه إما أن تكون هذه الصفات أزلية كالذات وإما أن تكون حادثة[1] فإذا كانت أزلية فكيف يمكنها أن تحل فى الذات وإذا حلت فيها كان هناك أزليون مع الأزلى !؟ وأما إذا كانت حادثة وحلت فى الذات فكانت الذات قد تغيرت من حال إلى حال والتغيير دليل الحدوث فتكون الذات حادثة فى صفاتها . وهذا ما لا يتفق مع كماله تعالى فإن الله منزه عن الحدوث والتغير لأن ذلك يجعل له تعالى بداية . أما القول بقدم صفاته فإنه يستلزم جمع قدماء فى الله أى وجود كائنات معه أزلا أو افتراض وجود تركيب فى ذاته لأن هذه الصفات تستلزم فى ممارستها أزلاً وجود أكثر من كائن واحد أو وجود كائن مركب وهذا باطل لأن الله لا شريك له ولا تركيب فى ذاته !

ومن ثم فإن كثرة الصفات ووجود الأقانيم كلها على السواء لا تعنيان التجزئة فى الله سبحانه إلى عشرات الكائنات أو العناصر والأجزاء وجعل كل منها إلها مستقلاً بنفسه ــ كما يظن البعض ــ لأن الصفات والأقانيم هما فى الله بغير تجزئة ولا تركيب ، مع تعذر إدراك كيفية قيامها ووجودها فى الذات الإلهية الواحدة ... ومن جهة أخرى فإننا لا نؤله الصفات إطلاقا بل حتى بالنسبة للثلاثة أقانيم فإننا مع إيماننا بأن كل أقنوم إلهاً لأنه قائم بالذات إلا أننا لا نقر اعتبارهم ثلاثة آلهة منفصلة لأن جوهر اللاهوت إنما هو لكل أقنوم منهم كاملاً بالسوية فلا شرك إذن ولا خروج عن التوحيد !!

ولذلك اعتبرها أصحاب هذا القول اعتبارات ذهنية موافقة لعقولنا فقط وليست حقائق ذاتية ، وهذا قول مردود لأنه ينفى ما يتحقق به وجود الله تعالى ؛ ويجعل ذلك الوجود وهما لا حقيقة فيه لأنه ينكر وجود هذه الصفات بحالة حقيقية أزلية إنكاراً قطعياً .

ولذلك اتجه البعض إلى الصفات السلبية وأسندوها وحدها إلى الله تعالى فقالوا لا نثبت له صفة على طريق الايجاب ولكن نسلب عنه اضداد هذه الصفات فلا نقول عالم ولكن نقول ليس بجاهل ولا نقول موجود ولكن نقول ليس بمعدوم وهكذا .

---

(١) فلسفة المعتزلة للدكتور البير نصرى

وبعضهم قال نوجب له الصفات ونتبعها حرف السلب ليزول ما توهم فيه من الشبه للمخلوقات فنقول حى لا كالأحياء وموجود لا كالموجودات وهكذا .

وقد تطرف البعض فاستعملوا السلب المزدوج بقولهم أننا لا نستطيع أن نقرر إن كان الله كف عن أن يخلق أم لم يكف ، وكف عن أن يعتنى أم لا يكف وهكذا ، مما يحسبونه « جهلاً » احترامیا لله « وبذلك وقفوا عند حد أنهم لا يقولون بالصفات ايجابية كانت أو سلبية **ووصل بهم الأمر إلى استحالة تسميته وهذا معناه استبدال الله « بسر غامض » ولذلك قرروا بأننا لا نعرف ما هو ونجهل ذلك كل الجهل !**

والذين نفوا عنه الصفات(١) : قالوا أنه لا يعلم ولا يريد وذلك بدعوى أن اتصافه تعالى بأى صفة من صفات الكائنات يجعله محدودا مثلها ولذلك ينفون عنه حتى الوجود بدعوى أن الوجود صفة من صفاتها ، ولكن لكى يتمشى هذا النفى مع اعتقادهم فى عظمة الله يقولون عنه أنه فوق الوجود وأيضاً فوق العلم وكذا ... وإن كانت صيغة هذا الوصف تبدو إيجابية إلا أنها فى الواقع سلبية وإنما بطريقة مهذبة إذ أن من هو فوق الوجود هو فى الواقع خارج عن دائرة الوجود ... وهكذا ... ولذلك فإن إلها مثل هذا لا يمكن أن يكون إلها حقيقيا بأى وجه من الوجوه : لأنه إذا ما كان فوق الوجود مثلا فمن أين للقائلين بذلك وجوده وكيف أدركوا تأثيره فى الوجود ؟ وإذا كان فوق العقل فكيف صدر العقل منه ؟

• • •

وليس إسناد الصفات السلبية البحتة إلى الله إلا تجريد له من كل صفة إذ يستحيل معها تكوين أى فكرة حقيقية عن الله وذلك لأن تعريف الله بهذا الوجه من الصفات أمر ناقص يجعل الله تعالى غير كامل والحال أنه منزه عن النقص كل التنزيه . كما أن الاله الذى يتصف بالصفات السلبية فحسب لا يستطيع أن يجلب إلينا سعادة أو سلاما ، إذ لا فائدة فى إله لا يكرهنا ولكنه غير قادر على مد يد العون إلينا .

وبذلك تسقط حجة القائلين بأن الله تعالى يتصف بالصفات السلبية دون الايجابية أو أن الأولى أكثر مناسبة لكماله تعالى من الثانية ! ومن ثم لا مكان لتجريد الله من هذه الصفات الأمر الذى أوجد « الوحدانية المجردة » !

---

(١) كتاب الله بين الفسلفة والمسيحية

فإذا ما قيل بأنه ليس من الضرورى لإثبات أزلية صفات الله ضرورة ممارسته لها أزلا فهذا قول باطل لأنه غنى عن البيان أننا إذا أسندنا الصفات (الإيجابية) إليه وسلمنا بوجودها فيه بالفعل أزلا ثم أنكرنا تمارسها نكون قد قلنا بوجود معلول دون علة أو نتيجة دون سبب أو مظهر دون حقيقة وكل ذلك باطل ، لأنه من المؤكد أن صفات الله كانت عاملة من تلقاء ذاتها أزلا وذلك إلى درجة الكمال **لأنه من دواعى كماله تعالى أن تكون جميع صفاته بالفعل أزلا وإلا لكان تعالى قد تعرض للتغير والتطور فيما بعد ــ أى عند بدء عمل صفاته ــ الأمر الذى يتنزه عنه كل التنزيه !**

ومن ثم فإن القول بأن صفات الله كانت تتجه فى الأزل إلى الكائنات التى كان فى قصده أن يخلقها باطل أيضا لأنه يجعل وجود هذه الكائنات أمراً ضرورياً لوجود صفات الله وهذا ينفى كماله الذاتى الذى بمقتضاه تتقوم صفاته تعالى بغض النظر عن وجود الكائنات أو عدم وجودها ، **لأن اعتبار الكائنات ضرورة لازمة بالنسبة لله تعالى يؤدى كما يقول ابن سيناء إلى الاستكمال بالغير** وهذا ما دفعه إلى الاعتقاد بأزلية العالم الأمر الذى يستلزم نقصاً على الله وهذا لا يتناسب مع كماله التام واستغنائه بذاته عن كل شىء سواها ، وهذا لا يتأتى إلا بوجود أقانيم فى اللاهوت تتبادل العلاقات وتمارس الصفات بينها وبين الجوهر الإلهى وذلك فى الأزل المطلق .

أما الجانب الآخر من مشكلة العلاقة بين صفات الله وذاته فهو : هل صفاته تعالى هى ذاته أم غير ذاته أم ليست ذاته ولا غير ذاته ؟

فالذين اعتبروا « أن صفات الله هى عين ذاته » قالوا أن كل ما اتصف الله به هو تعالى ذاته وذلك لأن الله حسب رأيهم ذات فقط ، وليست صفاته إلا أوجه لذات واحدة لا قسمة فيها ولا كثرة وبذلك أصبحت صفات الله لديهم موضوع اعتقاد فقط أعنى هذه الصفات غير موجودة البتة فى الذات وذلك خشية أن تصبح الصفات ــ وهى بالطبع قديمة يلزم أن تطبق عليها خصائص الألوهية ــ ذوات قائمة بالذات أو أصول ثابتة فى الذات ؛ ولكن قول كهذا ينفى وجود الصفات ويجعل الصفة موصوفا والموصوف صفة أو المعنى ذاتا والذات معنى وهذا باطل .

أما الذين قالوا « أن صفات الله غير ذاته » باعتبار أن الصفات معانى قائمة بالذات فقد جعلوا البارى تعالى جوهراً تتعلق به الأعراض ، لأننا لو اعتبرنا الصفات قائمة بالجوهر لاحتاجت إلى هذا الجوهر وأصبحت أعراض ولزم أن نطبق عليها كل ما يميز الأعراض

إذ أن العرض محتاج إلى جوهر ليقوم به ويلزم ذلك إثبات التقدم والتأخر بين الجوهر والاعراض (أى بين الذات والصفات) وبذلك لا يمكن أن تكون الصفات أزليه مع الذات . ويتعالى الله عن ذلك لأن الصفات على اختلافها ترجع إلى الذات لا إلى معنى غيرها زائد عليها فهو عالم وهو حى ذاته واحدة لا تغير فيها ؛ وكذلك سائر صفات الذات . وعلى ذلك فالقول بأن « صفات الله هى غير ذاته » باطل لأنه يفترض وجود أشياء منفصلة عن ذاته أو ملتصقه بها ، وصفات الله لا تنفصل عن ذاته كما أن التصاقها به يؤدى إلى وجود تركيب فيه والحال أنه لا انفصال ولا تركيب فى الذات الإلهية على الاطلاق !

أما الذين اعتبروا . أن الصفات ليست هى الذات ولا هى غيرها فلا هى زائدة على ذاته ولا مغايرة لها « الأمر الذى لأجله قالوا » « أن الصفات ليست عينه ولا غيره » فهذا أيضا باطل لأنه كيف يعقل شيئان أحدهما ليس هو الآخر ولا هو غيره !؟

وجدير بالذكر أن هذه الآراء على اختلافها تبين لنا محاولة التوفيق بين صفات الله وذاته ، ولكنها قد تركت المشكلة كما هى بل وزادتها تعقيداً وذلك بسبب الوحدانية الخالية من الأقانيم ، وهكذا ظهر عجز تلك الآراء عند بحثها هذه المشكلة ولذلك منعوا الخوض فى ذات الله وصفاته وجعلوه غير جائز !!

أما الحل المناسب فتقدمه العقيدة المسيحية واضحا ومانعا لكل تناقض أو غموض فى ذات الله وهو : « أن جميع صفات الله أزلية لا حادثة وهى ليست منفصلة عن ذاته ولا زائدة عنها ملتصقة بها ، وهو تعالى لم يكن خالياً منها قط ، ومع أنها عاملة فيه أزلا إلا أنه لا يعتمد فى ممارستها على أى شىء خارج عنه . هذا بجانب التمييز بين « صفات الذات » و « صفات الأفعال » وهو تمييز مناسب له أهميته العظمى . أما صفات الذات فمنها « الصفات الثبوتية » ومنها « الصفات المطلقة » والحال فى صفات الذات هذه بنوعيها أنها عين ذاته ولذلك سميت « بالصفات الذاتية » وأما صفات الأفعال فهى غير ذاته لكنها أزلية أيضا لم يزل البارى تعالى موصوفا بها لأنه يستحيل أن يكون الله فى الأزل بدونها أما ممارستها فلا يتم إلا بوجود الأقانيم فى الجوهر الإلهى . وهذه الصفات هى غير ذاته دون أن يترتب على ذلك وجودها فى حالة الالتصاق به أو الانفصال عنه لأنها عاملة بالفعل أزلا بين جوهره تعالى وأقانيمه ، ولا يبقى مجال للتساؤل عما إذا كانت قديمة أو حادثة إذ من الواضح أن تكون قديمة قدم ذاته دون أن يتطلب ذلك أى شرك معه أو تركيب فى ذاته بسبب وحدانية الجوهر الذى للأقانيم الثلاثة !!

الفصـــل الثـــانى
الصفـــات المطلقـــة

تنفرد المسيحية بالتمييز بين الصفات الذاتية وغيرها من الصفات الأخرى ولهذا التمييز أهميته العظمى فى توضيح صفات الله : فإن التمييز بين « صفات الذات » و « وصفات الأفعال » أمر لا بد منه فى هذا المقام لبيان العقيدة المسيحية على الوجه الصحيح .

أما « صفات الذات » فمنها « الصفات الذاتية الثبوتية » وهى التى تعرف بالأقانيم وتتحد بالجوهر الإلهى الواحد ، ومنها « الصفات الذاتية المطلقة » وهى صفات طبيعية تتصل بطبيعة ذلك الجوهر الفريد . والحال فى صفات الذات هذه بنوعيها أنها عين ذاته ولذلك سميت بالصفات الذاتية وهى أزلية أما « صفات الأفعال » فمنها ما يتصل بعلاقاته تعالى بالوجود وتعرف (بالصفات النسبية) ومنها ما يتصل بمعاملاته مع الكائنات العاقلة وتعرف (بالصفات الأدبية) وصفات الأفعال هذه بنوعيها هى غير ذاته وهى أزلية أيضا كسائر صفاته !! لأن سائر صفات الله أزلية بالضرورة كذاته !!

• • •

أما (الصفات الذاتية الثبوتيه) التى تعرف بالأقانيم ؛ فهى أصول ثابتة فى الذات ـــ وهذا هو أحد معانى الأقنوم ـــ والأصل هو ما كان ثابتا باقى على حاله لا يتغير ولا ينتقل عنه أبدا ويقول الكشاف : « إن أقنوم وجمعها أقانيم هى عند المسيحيين ثلاث صفات لله وهى الوجود والعلم والحياة فالوجود تعبير عندهم عن الآب. والعلم عن الكلمة والحياة عن الروح القدس » وهذا نفس ما جاء فى شرح المواقف ص ٤٢٦ : (إن الأقانيم الثلاثة الآب وهو الوجود والإبن أو الكلمة وهو العلم والروح القدس وهو الحياة) فأى غرابة إذن فى أن العلم والحياة باعتبارهما أقنومين فى اللاهوت هما صفتان ذاتيتان متميزتان فيه وهما تبعاً لذلك غير الوجود . ومع أنهما شيئا آخر غير الوجود وقائمين به إلا لأنهما أيضاً عين الوجود أو الذات . وقد شهد بن الطيب فى كتابه (أصول الدين) لهذه الحقيقة بالقول : (إن علماء النصارى يقولون أن البارى تعالى جوهر واحد وله ثلاث خواص

ذاتية وهى الآب والإبن والروح القدس) وهذه شهادات تشف عن حقيقة العقيدة المسيحية فى أقانيم اللاهوت !! والأجدر إذاً بمن يسلم بإمكانية اجتماع الصفات الكثيرة فى الذات الواحدة أن يسلم أيضاً بوجود الأقانيم الثلاثة فى نفس الذات الواحدة إذ أن الأمرين متشابهين بل أن بما فيها أقرب إلى القبول والتسليم !!

• • •

أما (الصفات الذاتية المطلقة) فهى التى تمثل لنا (الذات الالهية) من حيث اتصافها بكمال غير محدود وغير متغير من سائر الوجوه وذلك لثبات الله المطلق فى ذاته . وليس فى علمنا شيء أوضح من هذه الصفات المطلقة ــ أى كمالاته الذاتية ــ وذلك لتفوقها على الأشياء المادية فى البساطة وانتفاء الحدود عنها ، مع أننا نعجز عن فهم طبيعته تعالى بأكملها بسبب أن اللامتناهى يفوق إدراك العقول المتناهية !

وأما «الصفات النسبية الأدبية » التى تبين علاقاته تعالى مع الوجود والكائنات فإنها أيضا مطلقة فيه حتى أنها تسمى « الكمالات الإلهية » ــ وهى كمالاته الوصفية ــ ويجدر بنا قبل الشروع فى بحث صَفات الله بالتفصيل إثباتها فى البيان الآتى :

جــدول
صفــات الله

(١) الصفات المطلقة :

١ ــ الله روح	أ ــ الحياة ب ــ الشخصية	أى أنه ذات
٢ ــ غير محدود	أ ــ الوجود الذاتى ب ــ عدم التغير جـ ــ الكمال التام	واجب الوجود

(٢) الصفات النسبية :

١ ــ بالنسبة للوجود	أ ــ السرمدية ب ــ الحضورية جـ ــ عدم المحدودية	وهو أصل الوجود

٢ ــ بالنسبة للخليقة { أ ــ عليم بكل شيء / ب ــ قادر على كل شيء } وفيه يقوم كل موجود

(٣) الصفات الأدبية :

بالنسبة للكائنات العاقلة { أ ــ الصدق والأمانه = الحق / ب ــ الرحمة والصلاح = المحبة وهو نهاية كل شيء / جـ ــ العدل والبر = القداسة }

١ ــ الحياة والشخصية :

أجمع المتدينون على أن الله ذات أى كائن حى له وجود حقيقى يتصف بالعقل والشخصية إذ كيف يخلق العقل أو يوجد الشخصية من لا عقل له ولا شخصية ــ تعالى الله عن ذلك فهو تعالى لا يمكن أن يكون مجرد طاقة أى قوة محركة للعالم لا عقل لها ولا إدراك وقد أعلن الكتاب المقدس هذه الحقيقة بوضوح وذلك فى اسمه تعالى الذى أعلنه عن ذاته وهو فى اللغة العبرية اسم (يهوه) وقد ورد بصيغة الغائب ومعناه (هو الكائن) كما تحدث به تعالى إلى كليمه موسى بصيغة المتكلم فى اسم (أهيه) ومعناها (أنا هو الكائن) وهو يساوى لفظة (أنا هو) الكثيرة الورود فى التوراة والإنجيل .

والأصل فى لفظة (يهوه) مأخوذ من معنى الحياة ويتضمن أيضاً الشخصية ، ونظراً لأنه الصيغة السببة للفعل العبرانى (هايا) ويعنى حرفياً (يسبب أن يكون) فقد تضمن فى معناه النشاط والعمل الذى هو سبب الوجود ! وهذا هو معنى لفظة (القيوم) أى من قام بنفسه وقام به غيره فهو الكائن الوحيد الموجود بذاته أى « القائم بالذات » وهذا معناه أن حياته ذاتية له غير مستمدة من غيره ولا متوقفة على مشيئة سواه ؛ فهو موجود بذاته من غير أفتقار إلى موجد يوجده ، لا افتتاح لوجوده ولا نهاية لبقائه ، لا ابتداء له فيعرف ولا زمان له فيوصف ! فوجوده تعالى بلا أولية ولا نهائية ... **وهذا هو الوجود بالمعنى الحقيقى ! فهو تعالى « الذى له من نفسه ذات الوجود » ، فلهذا صح له البقاء إذ لا يعتمد كيانه تعالى على غيره كما هو الحال فى سائر المخلوقات لأن وجودها مكتسب تستمده من موجدها ! وكل موجود سواه مفتقر إليه فى وجوده !**

ولذلك قال اكليمنضس الاسكندرى « لله وحده الوجود الحق ومميزات هذا الوجود اسمى من الوجود المكتسب ولا وجه للشبه فيه بين الخالق والمخلوق »

أماكنه هذا الوجود الإلهى أى نوع الحياة الإلهيه والوجود الشخصى الحقيقى الذى لله فهو فائق الوصف والادراك ــ وأما الاشارة إليه بأنه تعالى روح ، بل الروح الأعظم غير المحدود **فالقصد منها أن جوهره تعالى لا يتكون من عناصر مادية أو أجزاء جسميه ولا يخضع لشروط الوجود الطبيعى التى تخضع لها الكائنات ومنها التحدد والانحصار فى حيز معلوم ولذلك فهو تعالى جوهر غير مرئى وغير محسوس فليس فى قدرة الخلائق أن تدرك الطبيعة الحقيقية التى للخالق عز وجل ! لأن خالق العقل أسمى من العقل بالطبع !**

٢ ــ الوجود الذاتى

الوجود نوعان : ممكن الوجود وهو الحادث الذى لا يوجد إلا بسبب ولا ينعدم إلا بسبب ولذلك فهو لا يتقدم السبب ولا يلازمه بل يكون بعده ، وواجب الوجود وهو وحده القديم الأزلى الذى لا ينتقل من العدم إلى الوجود لأنه لا علة لوجوده أصلاً ولا ينتقل من الوجود إلى العدم لأن وجوده واجب ؛ ولا يمكن أن يكون غير موجود لأنه لا يحتاج فى وجوده إلى موجد يقرر وجوده لأن وجوده من مستلزمات ذاته أى أنه موجود بذاته وجودا تلقائيا ثابتا مطلقا وذلك لأن وجوده وجوبى ضرورى حتمى ــ فهو إذن لم يكن مسبوقاً بوجود أو عدم ولا بعلة أو زمن ، وليس له بداءة لأنه لو بدأ فى زمن ما لأحتاج إلى علة سابقة وهذا يناقض كونه واجب الوجود **فمن المعلوم بالضرورة أن الواجب لذاته لا يحتاج إلى علة توجده لأن الوجود ضرورى له ، والمحتاج إلى علة توجده إنما هو الممكن لذاته لأنه لا يترجح وجوده إلا لوجود شىء آخر متقوما به يسمى علة وسبباً** ... والمقصود من ذلك هو بيان تناهى سلسلة العلل والمعلومات وانتهائها إلى علة لا تكون معلولة أصلاً بل تكون واجبة الوجود لذاته . ومن ثم ينبغى أن تكون العلل والمعلولات متناهية العدد واصلة إلى طرف يكون هو علة مطلقة ولا يكون معلولاً أصلاً وهو واجب الوجود ... الذى وجوده من ذاته فهو وجود مطلق تام الكفاية الذاتية مستغن عن كل ما سواه استغناء يحول بين العقل وبين التساؤل بشأن هذا الموجود المطلق عن : من أين وإلى أين وذلك لأنه واجب الوجود لذاته ، ووجوده ضرورى لذاته بقطع النظر عن غيره ــ فهو موجود بذاته لأن ذاته هى نفس وجوده !

• • •

فإذا ما تساءل عقل انسان : « من صنع الله أو من أوجده ؟ ومتى وجد ؟ وماذا كان قبله ؟ قلنا :

أولا : أن هذه الأسئلة هى هواجس الحادية تدل على كفر شنيع بل هى إهانه كبرى لشرف الله . وذلك لأن هذه الأسئلة بطبيعتها تفوق إدراك العقل البشرى المحدود ؛ ولذلك فهو لا يقوى على احتمالها . ونقول :

ثانيا : بأنه لو كان ممكنا حصر ذات الله فى العقل المحدود لكان سبحانه دون مستوى العقل ولسما ضعف العبودية على كمال الربوبية وهذا منطق معكوس فإن العجز عن إدراك الله إيمان حق . ولا بد أن يكون وجود الخالق سابق لوجود الخلائق فليس قبله شيء وهو قبل كل شيء ؛ ووجوده منزه عن علة أو واسطه لأنه خالق كل شيء دون أن يخلق ذاته أو يوجد نفسه : فهو كائن قبل الأكوان فى الأزل وأزل الأزل ، لم يسبقه زمان و لم يتقدمه عدم ، فلا قديم غير ذاته ولا كائن قبل ذاته . وجوابنا :

ثالثا : بأن الأسئلة السالفة الذكر تنقض نفسها بنفسها لأنه واضح لأنه تعالى العلة الأصلية للوجود وهذه لا تفترض علة سابقة لها وإلا اعتبرت علة ثانوية . ومعلوم أن حلقات سلسلة العلل والمعلولات هى قاعدة منطقية أساسية تحتم التسليم بالعلة الأولى إذ أن منطق العقل نفسه لا بد من أن ينتهى إلى سبب أول لا سبب له ، عنده يقف العقل فى نهاية المطاف إذ ليس فى وسعه أن يتخطاها لأنه لا يمكن أن يكون قبل الله شيء أو زمن وإلا لزم وجود علة خارجية عن الله أوجدته وهذا باطل لأنه هو تعالى العلة الأولى لجميع الموجودات ، وهو الموجود بذاته ومن ذاته مهما رجعنا إلى الخلف قبل الأزمنة الأزلية السحيقة والتى ليس لها بدء بالاطلاق !

٣ ــ عدم التغير :

عرفنا أن الله تعالى واجب الوجود وحده وليس معنى ذلك أنه أوجد ذاته لأن قولا كهذا يدل على أنه كان متقدما على ذاته وهذا محال لأن الله ثابت أبداً لا يزيد ولا ينقص ولا يطرأ عليه تغيير ما ؛ وهذا الثبات قائم دائم فيه باعتباره العلة الأولى المطلقة وذلك لأن التسلسل فى العلل يناقض عدم تغيره !

هذا الوجود الذاتى يستلزم بالضرورة عدم التغير وهذا المعنى متضمن فى لفظه « يهوه » أيضاً فأنها تعنى « الوجود الدائم غير المتغير » لأنها اسم مشتق من فعل الكينونة بصيغه الثلاث ــ الماضى والحاضر والمستقبل ــ فهى تعنى « الكائن والذى كان والذى يأتى »

ومثل هذا الوجود يحتم إطلاقه من كل تغيير فعلى أو مكانى ! **وهذا راجع إلى بساطة طبيعته وكماله التام ، فإن وجوده لذلك بالضرورة غير متغير ، لأن كل تغيير يجب أن يكون نحو الأفضل أو الاردأ ، وكماله المطلق يمنع كلا الأمرين . ومن ثم فإن عدم التغير صفة جوهرية مطلقة تطبق على كل كمالاته تعالى ، أما الحال معنا ومع سائر المخلوقات فهو التغير ، ولا يمكن أن يقال لشيء منها أنه موجود حقيقة فإن المخلوقات موجودة وغير موجودة لأنها ليست أزلية ولا هى قائمة بذاتها .**

ولذلك قيل عن الأرضِ والسمواتِ أنها « كلها كثوب تبلى كرداء تغيرهن فتتغير » (مز ١٠٢ : ٢٧) بينما يقول الله عن ذاته تعالى : « أنا الرب لا أتغير » (ملاخى ٣ : ٦) وكذلك قيل عنه « ليس عنده تغيير ولا ظل دوران » (يعقوب ١ : ١٧) ويقصد به التغيير المكانى كما يحدث للكواكب لما ينظر إليها من زوايا مختلفة ، فهى تدور حول نفسها وتنجذب إلى غيرها فى أفلاكها وتترك ظلاً قاتماً نتيجة دورانها وقد تمر فى كسوف وخسوف أثناء الدوران : أما الله فليس كذلك قط فهو لا يتغير فى أية ناحية من النواحى لا فى ذاته ولا فى صفاته ولا فى مقاصده . ومعنى أنه لا يتأثر بالزمن أيضاً فليس أمامه ماضى وحاضر ومستقبل بل أن كل شيء مهما كان زمن حدوثه حاضر أمامه : « لأن ألف سنة عند الرب كيوم واحد ويوما واحدا كألف سنة » (٢ بط ٣ : ٨) وهذا على وجه حقيقى وليس أنه يبدو لله تعالى كذلك ــ لأنه إذا لم يكن الله عارفاً بكل شيء أزليا يلزمه أن يكتسب المعرفة بما سيحدث وهذا يجعله متغيراً . وحيث أنه لم يزل باقيا فى الحقيقة بنفسه وعالماً بكل شيء بغير حدوث فإن الذى هو كذلك حاشاه أن يتغير!

٤ ــ الكمال التام :

يوصف الله عز وجل بالكمال التام لأنه كامل فى ذاته كمالا مطلقا « لا يحده شيء خارج عنه » ولا يشاركه فيه أحد فهو الكائن الفريد فى الكمال اللامتناهى ؛ معرفته وقدرته كاملتان وهذه الفكرة عنه هى الأولى التى تمثل للنفس مثولا طبيعيا مع فكرة النفس عن ذاتها ووجودها وترتبط بها ارتباطاً مباشراً .

فمن الذى خلق فينا فكرة هذا الكمال اللامتناهى ؟ واضح أنه غير ممكن أن تكون النفس سببها لأن النفس ناقصة محدودة منتهية ودون الكائن اللامتناهى الذى تتمثله بفكرتها ولا يمكن للأدنى أن يفسر الأسمى ! فوجود هذا الكائن هو علة تلك الفكرة وسببها الوحيد ! وواضح أن من عرف كائنا أكمل من نفسه فقد اعترف بأنه لم يهب الوجود

لنفسه وإلا كان قد وهبها كل كمال فى علمه مما تصوره فى هذه الفكرة ؛ وعلى ذلك فهو لا يبقى فى الوجود إلا بالكائن الحائز على كل كمال ؛ فهو تعالى منشىء الكائنات ومدرجها من البطون إلى الظهور ومن النقص إلى الكمال بحسب سنة التطور التى تعرف بقانون الترقى ! وبروز المخلوقات ناقصه لا يتخذ دليلاً على نقص العلة الأولى أو جمودها ـــ كما يتوهم الماديون ـــ وإنما هو دليل على كمالها وفاعليتها ، لأنه إذا تساوى المعلول بالعله فأى فرق يكون بينهما ولأنتفى الكمال والنقص معاً . والمعقول المرجح أن يكون كمال المعلول دائماً كمالاً نسبيا تابعا لكمال العلة مهما تطور وترقى ؛ وإن يبرز المعلول عن علته الكاملة مبدئيا فى حالة من النقص القابل للكمال فيتطور إليها متكملاً وتكون هى كهدف غائى له فإذا بلغها تناهى المعلول الناقص إلى علته الكامله كنقطة نهائية له(١)

وليس معنى ذلك أننى أفهم اللامتناهى فانى على العكس أجهل أموراً كثيرة فيه لأن تمام الإحاطة باللامتناهى ممتنع على موجود متناه مثلى ، ولكنى أعلم فقط أنه حاصل على جميع الكمالات بمقدار ما أدركته عن صفاته وفكرتى عنه هى فعل عقل متناه ناقص يتعقل الكامل اللامتناهى كما يستطيع ويرى فيه كائن عليم بكل شىء وقادر على كل شىء وفى غاية الكمال ؛ **بل هو الكائن الحائز على تمام الكمال ، فهو وحده التام الكمال وفكرتى هذه عنه لا يمكن أن تكون صادرة إلا عن كائن كامل جداً هو الأصل الذى يحوى كل ما تمثله هذه الفكرة من كمالات(٢)**

• • •

وكمال الله يتضمن حريته المطلقة فى عمل ما يريد وسيطرته التامة على كل شىء فإذا ما قيل : وكيف نوفق بين كمال الله ووجود الشر والألم فى خليقته حسبما هما موجودان فى هذا العالم فإننا نقول :

أولا : أننا لا نزعم الاحاطه بحكمة الله فيما يلقاه الأحياء من العذاب والبلاء وفيما يقع منهم أو يقع عليهم من الإيلام والإيذاء .

ثانيا : أعلن لنا الكتاب المقدس أن الله قد سمح بالشر على غير مسرة منه لقصد حكيم وهو أمتحان حرية الخلائق ولكن له تعالى السيادة التامة فوق الشر نهائيا .

ثالثا : أن هذا العالم كما عهدناه بما فيه من نقص وقصور يتناسب مع محدودية المخلوق إزاء الخالق ، وإذ هو ينتظر عاقبة سرمدية لا نملك أن نقيسها على ما نشاهده فى بقعة

---

(١) كتاب الوجود . (٢) كتاب فلسفة ديكارت

الحاضر وهى حيز محدود بل ذرة هباء إزاء الصورة الأبدية التى تتناول الدهور التى لا يمكن أن نحصيها . فمن أين لنا أن نقيس جمال هذه الصورة الدائمة على بقعة الحاضر العابرة ؟ وكيف نحصر الآزال والآباد فى لمحة من حاضر عابر وكيف نستوعب بالحواس ما تضيق به الحواس بل العقول ؟[1]

ولذلك مهما بحثنا عن صورة للعالم أقرب إلى العقل من صورته هذه فإننا لن نجد ولن نرى فيما افترضه الفلاسفة إلا إشكالا يضاف إلى إشكال فان هناك أشياء تحير عقل أذكى انسان ؛ وتقف أمامها اللغة عاجزة عن التعبير **ومن ثم كان الاتفاق عاماً على أن كمال الله تعالى تام من كل الوجوه مع الاعتراف بالعجز عن الاحاطة به عجزاً تاماً** . وإذا رجعنا إلى الكتاب المقدس وجدنا أن الاعجاب بكمال الله قد سبى عقول الأنبياء سبياً تاماً . فقد جاء عنه القول : « القدير لا ندركه ... يصنع عظائم لا ندركها » (أيوب ٣٧ : ٥ ، ٢٣) كما خاطبه داود النبى مرة قائلا « برك إلى العلياء يا الله الذى صنعت العظائم . يا الله من مثلك » (مز ٧١ : ١٩) فبمن تشبهون الله وأى شبه تعادلون به ؟ (أش ٤٠ : ١٨) فمثل هذا الكمال التام الذى يليق بجلال الله إنما هو فائق الحد وأبدى لأنه قائم إلى الأبد والملائكة يقرون به وكذلك القديسون ينسبونه له تعالى ويتأملونه إلى دهور الآبد !

• • •

---

(١) كتاب الله

سر أمامى وكن كاملا » (تكوين ١٧ : ١) وبعد ذلك بقليل أمام أمر معتبر مستحيل نقرأ قوله تعالى « هل يستحيل على الرب شيء » (١٨ : ١٤) وفى نفس السفر جاء وصفه « بأنه الله القادر على كل شيء » (٤٨ : ٣) وفى سفر أيوب نجد هذا الاعتراف . « قد علمت أنك تستطيع كل شيء ولا يعسر عليك أمر » (٤٢ : ٢ » وقد ذكر أرمياء النبى قوة الله العظيمة فى صنع السموات والأرض مؤيدة بإقرار مماثل وهو « لا يعسر عليك شيء » (٣٢ : ١٧) ونقرأ فى نبوة دانيال القول : « هو يفعل ما يشاء فى جند السماء وسكان الأرض ولا يوجد من يمنع يده أو يقول له ماذا تفعل (٤ : ٣٥) وفى العهد الجديد نقرأ . « كل شيء مستطاع عند الله » (متى ١٩ : ٢٦) وأيضا « ليس شيء غير ممكن لدى الله » (لوقا ١ : ٣٥) كما ورد فيه « أنه حامل كل الأشياء بكلمة قدرته » (عبرانيين ١: ٣) .

ونحن نقف موقف الخشوع والوقار أمام قدرته . فالله فقط هو القدير ماشاء كان وما لم يشأ أن يكون لم يكن ، والشيطان لا يستطيع أن يعمل شيئا بدون سماحه وقدرة الله مع أن معناها أنه يستطيع عمل ما يريد . ولكنها لا تقبل الشر ولا ترضى بالظلم !

• • •

إلى الأبدية ... **وكل مسافة الزمن بين الأزل والأبد التى تبدو لنا شاسعة جداً ما هى إلا طرفة عين بالنسبة لهذه السرمدية بل أن الفرق الذى نقيمه بين الزمن والأبد ليس إلا فرضاً خيالياً** إذ من المستحيل التمييز بينهما وليس قياسنا للزمن بالأيام والسنين إلا لتسهيل سفرنا العابر فى هذا العالم !

• • •

وهذه السرمدية قد أعلن تعالى بأنه يسكنها (أش ٥٧ : ١٥) وهى بلا حدود ، وهيهات أن نحيط بها إدراكا مهما حاولنا استعمال مقاييس الزمن بالنسبة للوراء والامام لأنها أوسع من حدود الزمن بأسره : **فمهما رجعنا إلى الخلف إلى الأزمنة السحيقة التى لا تحصى فإن خيالنا يقف عند حد ونقف مبهوتين أمام أزل مطلق لا أسم له ولا بدء ، سوى تعريف الكتاب المقدس له بالوصف : « قبل الأزمنة الأزلية » (تيطس ١ : ٢) ونفس الوضع ينتظرنا إذا حاولنا أن نقيس هذه السرمدية من ناحية المستقبل ، فهى تمتد إلى الامام كما إلى الخلف بلا نهاية !** كل هذه السرمديه لا تعنى شيئا بدون الله الذى يشغلها والذى يقول عن نفسه فى كتابه العزيز « أنه الأول والآخر » (أش ٤٤ : ٦)

وتعنى هذه السرمدية أنه تعالى متميز عن الزمن بحالة مطلقة لا بداية لها ولا نهاية وبلا تتابع أو تعاقب زمنى : فإن أبديته تعالى تختلف عن أبدية الملائكة والبشر ، فى أنها أزلية مستقلة جوهرية وضرورية ؛ ورغم وجوده تعالى مع الزمن فى حلقاته المتتابعة إلا أنه بالنسبة للزمن نجده كمركز الدائرة الذى يحركها دون أن يتحرك معها ، ولذلك فالزمن لا يقيس سرمدية الله التى عرفنا أنها من الحقائق التى تتعدى حدود إدراكنا إذ هى سرمدية مطلقة مستقلة ، وهى ملك لله وحده لا يشاركه فيها أحد لذلك ليس بينه وبين مخلوقاته زمان ولا وقت جامع بل تقدم حكم وجوده على وجود المخلوقات هو المسمى بالقدم وطروء المخلوق لافتقاره إلى موجد يوجده هو المسمى بالحدوث !

فهو تعالى له القدم باعتبار الوجوب الذاتى لأن من كان وجوده واجبا لذاته لم يكن مسبوقا بالعدم ومن كان غير مسبوق بالعدم لزم أن يكون قديما بالحكم فقدمه إنما هو حكم لازم للوجوب الذاتى : **وما دام سبحانه سبب وجودى وبالأولى سبب بقائى فى الوجود وانتقالى من اللحظة الماضية إلى اللحظة الحاضرة وأيضا من اللحظة الحاضرة إلى اللحظة التالية فلا بد أن يكون قديماً بالذات وأزليا أيضاً .**

والفرق بين الأزل والقدم أن الأزل عبارة عن معقول القبليه المحكوم بها لله تعالى من حيث ما يقتضيه كماله السرمدى لا من حيث تقدمه على الحادثات بزمان متطاول العهد . فإزله موجود الآن كما كان موجوداً قبل الموجودات لم يتغير عن أزليته ولم يزل أزلياً فى أبد الآباد ، أما القدم فهو عبارة عن انتفاء مسبوقية الله تعالى بالعدم فى قبليته هذه . وهذا القدم هو الأزل المطلق الذى ليس لشيء من المخلوقات فيه وجود مع الله . فأزل الحق أزل الآزال وهو له وحده حكم ذاتى استحقاق لا حكم للخلق فيه . وكذلك الأبد هو عبارة عن معقول البعدية لله تعالى وهو حكم له من حيث ما يقتضيه وجوده الوجوبى الذاتى !

وأعلم أن القبلية والبعدية لله تعالى حكميان فى حقه لازمانيان لاستحالة مرور الزمان عليه : **فابده هو عين أزله وأزله هو عين أبده ، فإنه عبارة عن انقطاع الطرفين الإضافيين عنه لينفرد بالبقاء ذاته لأن الأزل والأبد وصفان لله أظهرتهما الإضافة الزمانية لتعقل وجوب وجوده وإلا فلا أزل ولا أبد بل وجود مطلق سرمدى ! وهذا النطاق الغير محدود لا يصل إليه إدراك على الإطلاق !!**

« كان الله ولا شيء معه » فلا وقت له سوى الأزل الذى هو الأبد ، الذى هو حكم وجوده باعتبار عدم مرور الزمان عليه وانقطاع حكم الزمان دون التطاول إلى مسايرة بقائه فبقاؤه الذى ينقطع الزمان دون مسايرته هو الابد !

فهو تعالى « غير محتاج إلى شيء » بلا قبلية ولا بعدية إذ هو قبل وبعد وهو أول وآخر ، أوليته عين آخريته ؛ وقبليته عين بعديته ، وهى ليست قبلية توقيت ؛ لأنه يتعالى عن أن يكون له توقيت وكذلك فى بعديته ، فاوليته وآخريته حكماً لازمانية ولا مكانية فيهما بل هما كما ينبغى له قبل وبعد خلق الخلق ...

أنه أسمى من كل بداية ولا يمكن للمخلوق الذى له بداية أن يدركه : فهو فى جلاله اللانهائى يتجاوز كل حد من الحدود ، وذلك لأن كماله المطلق يجعله تعالى الموجود الذى لا بداية له ولا نهاية أى السرمدى الذى لا حد له ولا حصر ، والحق أن هذا النوع من الوجود يتسامى فوق العقول ويعجز أمامه كل بيان !!

٢ ــ حضورية الله ــ بالنسبة إلى المكان :

يتساءل كثيرون عن مكان وجود الله . ويرى البعض أن الله موجود فى السماء وآخرون

يقولون أنه موجود فى السماء والأرض ، ولكن هذه أقوال خاطئة لأن السماء والأرض مخلوقتان حديثتان وأما الله فهو الأزلى ، فلا يحده مكان من أى جهة مع أنه تعالى يحل فى كل الأماكن فى وقت واحد حلولا غير مدرك ولا مقيد ... ومن ثم فإنه تعالى موجود داخل الكون كما أنه موجود خارج الكون وجوداً لامتناهياً بلا حصر ولا حد ، ومن العبث محاولة الذهاب وراء ذلك بعيداً واختراق ما لا يمكن اختراقه !! فهو سبحانه يملأ كل الأشياء دون أن يسعه أو يحصره شيء ويحل فى كل الأماكن معا ولكن لا كحلول الأشياء فى الأشياء بحيث يكون له طول وعرض وعمق وعلو وكم وكيف بل هو حلول فائق لا نتطاول إلى معرفته بعقولنا القاصرة ويكفى أن نعلم بشأنه بأن الطبيعة الإلهية تخترق كل شيء دون اختلاط بالأشياء ودون أن يخترقها شيء منها وبغير أن تأخذ مكان الأشياء !! **مركزه تعالى فى كل مكان وأما محيطه فليس فى مكان إذ هو محيط لا نهائى أى لا نهاية له لأنه المحيط الشامل المتجاوز فى المدى كل حدود** : فهو يحيط بكل شيء ولا يحيط به شيئاً ، ويسع كل شيء ولا يسعه شيء ، وليس لمخلوق ما أى رجاء بأن يختفى من خالقه فى أى زاوية من الأرض أو أى ركن من الكون كما أن حضوره تعالى فى كل مكان لا يُبعد أى كائن من مكانه . وهذه أعظم الآيات المحسوسة على قدرة الله الكلية التى يتوقف خيالنا عند محاولة تصورها !

وتؤمن العقيدة المسيحية بأن الله تعالى حاضر فى كل مكان بصفة مستديمة لا يخلو منه موضع **وهذا معناه أن طبيعته اللاهوتيه متساوية الحضور فى الفضاء الكونى الشاسع ، إذ ليس هناك نقطة مكانية فى أى جزء من الوجود لم يلمسها وجوده أو لم يصل إليها ؛ فذلك الوجود الفريد هو فى كل مكان القوة الحاضرة التى تحفظ الكائنات بعد أن أوجدتها وهو إذا ما كان حالا فى مكان فلا بد أن يكون غير منظور لأنه لو كان حالا فى مكان دون آخر لكان يصبح منظوراً له شكل يظهر للعيان فى المكان الذى يحل فيه دون غيره ولكن الله ليس كذلك لإنه فى جوهره ليس له شكل أو سمت حتى يكون ظاهراً فى مكان ما ، كما أنه لا يمكن أن ينحصر فى نقطة بالذات فيظهر فيها دون غيرها لأن وجوده لامتناهى كما أنه بحسب طبيعته الجوهرية لا يتحرك من مكان إلى آخر ولا يفرغ حيزا ويملأ حيزاً آخر إذ هو لا يتحدد بالمكان ولا يحصر فيه . ولهذا قال اغسطينوس « الله موجود فى كل مكان بنوع خفى ، وموجود فى كل مكان بنوع ظاهر أما كونه تعالى خفياً فلأنه لا يمكن لأحد أن يراه كما هو فى ذاته . وأما كونه ظاهراً فلأنه لا يقدر أحد أن ينكر وجوده »**

« يشرق شمسه على الأشرار والصالحين ويمطرُ على الأبرار والظالمين » (متى ٥ : ٤٥)

• • •

يتطلب عدل الله أن الخاطىء الغير تائب يدان ويعاقب ولكن حتى الخاطىء الذى تاب عن خطاياه فإن العدل يستوجب عقابه على الخطايا التى ارتكبها .

ولكن رحمة الله تطلب مصلحة الخاطىء وعدم محاسبته على الخطية والترحيب به عند عودته بالتوبة بل وحتى إلى غير التائبين تظهر هذه الرحمة فى صبر الله وطول أناته فانه لا يعاقب الخاطىء فوراً ولكنه كثيراً ما يمد له فرصة التوبة .

ومحال أن يكون الله كالبشر فإنهم تارة يصفحون تحت تأثير العواطف البشرية دون أن يكون هناك مبرر كاف للصفح وتارة يعاقبون تحت تأثير مصلحتهم الشخصية دون أن يكون هناك مبرر كاف للعقاب .

أما الله فحاشا له أن يكون متساهلا بالانقياد وراء رحمته دون عدله فى حالة الصفح أو صارما بتمسكه بحقه دون رحمته فى حالة العقوبة ولذلك فإنه لا يصفح ولا يعاقب إلا قانونيا : فهو رحمن رحيم ولكنه أيضاً عادل عدول ولا يستطيع لذلك أن يصفح عنا بدون تعويض قانونى ولكن من الجهة الأخرى لا يوجد مانع قانونى أمام العدل الإلهى يمنع وجود نائب يقوم بتقديم هذا التعويض إذا قبل هذه المهمة وكان كفؤا لها . **وبغير ذلك لا يستطيع الله أن يصفح عنا لأنه لا يستطيع أن يعمل عملاً يخالف صفاته فهو لذلك لا يمكن أن يكون متساهلا (غير عادل) لأن العدل صفة ثابتة فيه لذلك لا يمكنا النجاة من قصاص خطايانا ما لم يقدم عنا التعويض القانونى ، ولو تنازل عن حقه لعجزنا لكان ذلك التنازل اضطراريا وحاشا لله أن يرغم على القيام بعمل ما** ــ لقد كان من الممكن حقاً أن عدل الله يتخلص من الخاطىء نفسه ولكن أين تكون ــ رحمته حينئذ بل وكيف يتم التوافق حينئذ بين صفتى المحبة والقداسة فى طبيعته ؟

إن تعدى الناموس إهانة لله (رومية ٢ : ٢٣) والله مرتبط بصفاته الأدبية وليست هذه قوانين متغيرة ؛ فهو قادر ولكن ليس على حساب عدله الذى أمر أن تعطى نفسا بنفس ــ **فإذا عفا عن المذنب بمقتضى رحمته فعدله لا يأخذ مجراه ، كما أنه إذا قاص المذنب بمقتضى عدله فرحمته لا تأخذ مجراها ، ولا ينتظر أن رحمته تأخذ مفعولها دون عدله ؛ ولا عدله يأخذ مفعوله دون رحمته ، فإن عدله غير محدود وغير متغير ، ورحمته**

أيـن منـك الـروح فى جوهـرها | هـل تـراها أو تـرى كيـف تجول
فـإذا كانـت طوايـاك التـى | بيـن جنبيـك بهـا أنـت جهـول
كيـف تدرى من على العرش استوى | لا تقل كيف استوى كيف الوصول

أما المقصود بالقول إن السماء « كرسى الله » فهو أنها مكان راحته حيث ملائكته وقديسيه من حوله يعملون مشيئته ويمجدونه باستمرار ولذلك قيل « إن الرب قد صنع السموات . الجلال والبهاء أمامه . العزة والبهجة فى مكانه » (أخبار أول ١٦ : ٢٧) .

لذلك كان المتقدمون يقولون أنه من الصواب أن يقال أن الله فى السماء وذلك لأن الأديان قد أعلنت بأنه تعالى قد خصص السماء محلا مختارا لاعلان أمجاد حضوره بصفة خاصة فهناك فى حضرته الملائكه واقفون والمفديون آتون !

وهذا لا يمنع طبعا من أن يكون تعالى فى مواضع شتى فى آن واحد من غير حركة انتقال ولذلك ورد فى ذات النص السابق ذكره : « إن الأرض موطىء قدميه »

أما كيف يكون الله فى كل مكان وفى نفس الوقت يكون حاضراً فى مكان خاص : فهذه صعوبة يحار أمامها العقل وقد قام بسببها جدل كبير فقال بعضهم إن الله هو كل مكان وقال آخرون أن الله ليس فى مكان بينما قال فريق ثالث إن الله فى كل مكان ، وغيرهم قال أنه يحيط بكل مكان **فالذين قالوا إن الله يدعى بالمكان قرروا ذلك لأنه تعالى يحوى كل شىء ولا يحيزه شىء** لأن كل محيز متناه والشىء المتناهى يحويه مكان ولكنه ليس مكانا لأن الشىء المحوى غير الذى يحويه ؛ وأما الله فلا يحويه شىء من ثم فبالضرورة وجوده هو مكانه ومادام وجوده لا يخلوا منه مكان فهو بذلك كل مكان لأنه هو المكان نفسه !

والذين قالوا أنه تعالى ليس فى مكان ولا يوصف بالمكان ولا يراد بالقرب والبعد إثبات مكان له فقد قصدوا أنه تعالى منزه عن المادة ومن لا أثر للمادة فيه لا يتحيز بمكان . والله إذن هو غير مادى وغير محاط ليس له مكان وليس فى مكان حتى يتعين رؤية جوهره فيه فضلاً عن استحالة ذلك لأنه جوهر غير منظور !

وأما الذين قالوا بأن الله فى كل مكان فقد أرادوا بذلك الاستدلال على نطاق لا ندرك له حدوداً فهو يملأ كل الأشياء وهو فوق كل الأشياء وهو نفسه مدعم كل الأشياء وذلك لأنه خالق لكل شىء ولذلك لا يمكن أن يحده شىء ، وهو غير محدود لا يحده حد من الحدود ؛ وهذا ما يجعله كاملاً بلا حد ووجوده لا نهائى لا يمكن للعقل أن يصل إليه ولا للعين أن تراه أو تخترق حجبه إذ هو تعالى أسمى من عقول المخلوقات فأنّى للمخلوق أن يفهم الخالق أو يحصره فى حدود معرفته !

أما القول بأنه تعالى يحيط بكل مكان فذلك لأنه تعالى الكائن الكامل الذى ذاته شاملة محيطة بكل الأشياء دون تحديد لها وقد فسر اغسطينوس هذه الحقيقة فقال : « أن الله حاضر روحيا فى كل مكان بدون الربط بين جوهره الذاتى وبين خليقته التى يحيط بها : ومهما حاول العقل أن يدركه فسيكتشف محدوديته هنا ؛ وعليه أن يقر بعجزه فى هذا الاتجاه »

على أن حضور الله المطلق فى كل مكان لا يمنع حضور الله الخاص فى مكان معين حيث يظهر نشاطه ويمنح الكل من ذلك النشاط بنسبة تأهل وقبول كل جزء وبذلك نجد لله تعالى نقاء طبيعى وإرادى معا ــ لأن غير المادى أنقى من المادى والله قدوس طبيعيا وإراديا ــ وهذا الحضور الخاص هو ما يظهر فيه فيضا أعظم من نشاطه ونعمته ، وقد حدث مثل هذا الحضور الخاص فى أماكن للعبادة بدرجة تزلزلت معها تلك الأماكن ! مما يدل دلالة قاطعة على استطاعة الله تعالى أن يختار أى موضع مقدس سواء فى السماء أو على الأرض ليظهر فيه حضوره الخاص لأغراض معينة دون أن يمتد أثر ذلك الحضور إلى كل الخليقة . ولكن ذلك الحضور الخاص لا ينكر عدم محدودية حضوره العام فى كل مكان ولا يتعارض معه ، بل أن ذلك الحضور الخاص مع المباركين فى السماء والقديسين على الأرض يتضمن بالضرورة لانهائيته الجوهرية لأن ذلك الحضور الخاص لا يمكن أن يمنح ما لم يكن الله غير محدود جوهريا أى أنه حاضر بكل جوهره فى كل مكان وفى نفس الوقت . ولقد كان حضور الله الخاص فى شكل منظور يعرف بالشكينا (أى المجد الظاهر بين الكروبين فوق التابوت) وهى تعنى السكون أى السكينة أو محل حضور الله . !

٣ ــ عدم محدودية الله بالنسبة إلى القياس :

هذه الصفة تمثل لنا ناحية فريدة من نواحى عظمة الله بل كماله المطلق ، وهى تعنى اللانهائية التى لا تستلزم الحصر لأن الحصر مناف لها ؛ ويراد بها الوجود الكامل المطلق الذى لا تحيط به تحديدات الطبيعة البشريه ولا هو يخضع لنظام العلم البشرى ؛ وهذا هو الوجود الوحيد الذى يتوافق مع الله وخصائصه وأعماله !

وليس معنى عدم محدودية الله أن له تعالى كمية لأن الذى له كمية له نهايه إذ النهاية هى انقطاع كمية الشىء واذن ما لا كم له فلا انقطاع له فلا نهاية له ولذلك لا يقاس الله بأشياء مخلوقة ولا بما يمكن أن يتصوره الفكر .

ومع حضوره تعالى التلازمى لخلائقه فإن عدم محدوديته تجعله لا يتقيد بحدودها **ولذلك فإن عدم محدودية الله تشمل حضوره فى خليقته كما تنطبق عليه قبل الخليقة وبدونها وذلك لأن جوهره تعالى وهو غير محدود** حاضر فى كل مكان بصفة دائمة[١]

على أن عدم محدودية الله ليس معناه امتداد فى جوهره لأن الامتداد لا يكون إلا فى المادة وهو يجعله تعالى قابلا للانقسام ــ أى جزء منه فى مكان وجزء فى مكان آخر ، وحاشا أن يكون الله كذلك : لأنه تعالى ليس بجسم أى جوهر مادى متحيز يمكن أن يشار إليه أنه هنا أو هناك بالحس ويمكن أن يفرض فيه أبعاد ؛ فهو تعالى ليس موجوداً بمثل ذلك بل هو منزه عن أن يكون فى جهة أو حيز أو حالا فيما يكون فى الجهة والحيز ، كما أنه لا يختلط بالخلائق لأنه قدوس متميز عن الكائنات وهو يدعم كل الأشياء ولكنه لا يختلط بشىء منها : وقد أجمع العارفون أنه مباين للعالم مباينة لا تقتضى تحيزاً بمكان وانفصالاً ؛ وأن كل شىء موجود منه دون أن يستلزم ذلك ممازجه واتصالا بل صفة جلية لا تحيط بها العقول ! وذلك لأنه تعالى موجود فى كل مكان بدون أن يكون مقيد فى أى مكان فهو موجود ولكن بغير حصر فى جهة معينة . وليس فى وجوده قرب وبعد فان وجوده فى مكان معناه أنه يحكم كل مكان وقصده فى كل مكان **وذلك لأنه تعالى روح يشمل الكون كله ويتخلله ويحيط به وينفذ فيه وهذا هو سر الوجود !** ووجوده هذا فى كل الأشياء وجود حقيقى طبيعته غير محدودة مهيمن على كافة الموجودات ومالىء الفضاء الكونى الذى لم يكتشف له العلم حدود ، فهو تعالى موجود مستقر فى كل نقطة من الوجود وفى كل لحظة من الزمان[٢]

ونفهم من اعلانات الكتاب المقدس أن الله تعالى روح غير منظور حال فى كل مكان وزمان بدون حصر أو اختصاص فى الانفعالات والجهات لأنه روح مطلق لا يتقيد بمكان أو زمان ؛ **لا تحيط به المسافة ولا يدركه القياس ــ ليس هو مادة ولا صورة مادية وليس فى مقدور الإنسان أن يعرفه بالمقاييس والموازين ، فليس فى مقدورنا أن نقول ما هو ولا كيف هو ولا أين هو ! لا يدرك بالحواس ولا يقاس بالناس** : جوهره بسيط لا يمكن تمييزه كما فى المواد المحدودة ، كما أنه غير مركب من أجزاء وإلا فان قوة أخرى تكون قد جمعتها معاً ويكون كيانه متناقضاً .

ولقد احتاط أوريجانوس عند بحثه التشبيهات المستعملة عن الله فيذكر بأن تشبيهه تعالى بالنور والنار لا يعنى أن له طبيعة مجسمة فليس فى ذلك تجسيم أو تحديد بل هى تشبيهات

(١) محاضرات فى اللاهوت للدكتور اندرش . (٢) الله فى الطبيعة لكميل فلاماريون .

تدل على أن طبيعته تعالى غير جسمية وغير محدودة لأنها عقلية بسيطة ، وحتى وصفه بالروح يلزم فيه الاحتياط لأنه لا يعنى أن له جسم لطيف شبيه بأرواح المخلوقات العاقله وأما سبب عدم ادراكنا له تعالى فهو فينا وليس فيه هو ...

أما كيف يمكن أن يكون الله فى أى مكان دون أن يتحدد فى مكان فقد أجاب عنه يوحنا الدمشقى فى حديث عن مكان الله وعدم الاحاطة به فقال
« ان **المكان الجسمى** هو الحد الذى ينتهى إليه الشىء الذى له احتواء ، فالهواء هو المكان الذى يحتوى الجسم ؛ ولكن حد الهواء المحتوى هو نقطة الاتصال التى فيها يتصل بالجسم المحوى ، وهذا المكان هو الذى ندركه بالحواس . ولكن الله تعالى ليس أثيرا يحتويه الهواه !

وهناك **المكان العقلى** وهو الذى نتخيله فى العقل بنشاطه المعنوى والطبيعة العقلية غير الجسمية موجودة هنا . ولكن الله تعالى ليس فكراً يحتويه العقل !

وهناك **المكان الطبيعى** الذى تحدث فيه الحركة ... ولكن الله تعالى ليس مجرد قوة محركة !

وهناك المكان المطلق الذى لا حدود فيه ولا قياس : وهو يمثل لنا وجود الله بلا حركة من مكان إلى مكان وبلا ظهور فى مكان دون مكان وهنا لا توجد كلمات تستطيع أن تصفه بالكفايه « لأنه من قاس روح الرب » (اشعياء ٤ : ١٣) .

وعند هذا الحد يقف الملائكة والبشر لأنهم محدودون فى الزمن إذ أن لهم بداية : وكذلك فى المكان لأنهم إذا كانوا فى مكان لا يستطيعوا أن يكونوا فى غيره فى نفس الوقت ؛ وأيضاً فى الادراك لأنهم مهما اتسعوا فيه فإلى حد محدود ؛ وحدودهم هذه قد وضعها لهم خالقهم ليقفوا عند حدهم لدى تأملهم فى عدم المحدودية التى يتصف بها وحده وينفرد !!

٤ ــ علم الله ــ بالنسبة إلى مجريات الحوادث

فقد أحاط سبحانه بكل شىء علما وأحصى كل شىء عددا . علم الأشياء قبل وجودها ثم أوجدها على حد ما علمها ، فلم يزل عالما بالأشياء لم يتجدد له علم عند تجدد الأشياء . علم الكليات على الاطلاق كما علم الجزئيات بالاجماع فهو عالم الغيب وشاهد الواقع . وعلمه لا متناهى قديم فهو تعالى على علم تام بجميع الأشياء التى فى العالم وعما يمكن أن يطرأ عليها وذلك بحالة مطلقة ذاتية تامة وهو على علم تام بها أزلا .

---

(١) تاريخ الفلسفة لبيرى .

لذلك جاء فى الكتاب المقدس القول : « معلومة عند الرب منذ الأزل جميع أعماله » (أعمال ١٥ : ١٨) وهذا معناه أن علم الله بالعالم لم ينشأ عند وجود العالم بل كان لديه أزلا لأنه تعالى هو خالقه والخالق يعرف كل شيء عن خليقته قبل خلقها ، فضلا عن كونه تعالى لا يتأثر بالزمن مطلقا ومن ثم لا يطرأ عليه تغير بسبب علمه بشيء يحدث فى الزمن وقد اختص كل حادث بوقت وشكل وقدرة ــ لفهمه لا أحصاء » (مز ١٤٧ : ٥) فهو ينظر ويعلم كل شيء فى كل مكان وفى كل زمان فى وقت واحد وهو ينظر ويعلم ليس الأمور الظاهرة فحسب بل أيضا الأفكار والنيات وهذه معرفة شاملة عجيبة ولذلك قيل فى وصفها : « يالعمق غنى الله وحكمته وعلمه ! ما أبعد احكامه عن الفحص وطرقه عن الاستقصاء ! » (روميه ١١ : ٣٣) وكذلك هو تعالى يعلم المستقبل كما يعلم الحاضر والماضى تماما (اشعياء ص ٤٦ ، ٤٨) .

وهو سبحانه عالم لما يريد ، لم تتعلق قدرته بشيء حتى أراده كما أنه لم يرده حتى علمه إذ يستحيل فى العقل أن يريد ما لم يعلم : لأنه هل يجوز كون ما علم الله أن يكون منذ القديم أنه لا يكون أم أن علمه الأشياء قبل وجودها يحتم أن يوجدها على حد ما علمها ؟ وهذا يوجب علمه تعالى بالأفراد وعنايته بهم .

قال توما الاكوينى : « إن الله عالم لأن العلم كمال والله كامل . والله منزه عن المادة لذلك يقبل الصور المعنوية للأشياء قبولا تاما . والله هو العلة الفاعلية الأولى ولذلك فلمفعولاته وجود سابق فى علمه . ومن ثم فإن علم الله بالعالم لم يحدث ولا يحدث بسببه أى تغيير فيه تعالى : وليس ذلك العلم تدريجيا بل هو حاصل دفعة واحدة باستقلال فريد لحضور الذات الالهية لذاتها حضوراً تاماً . » وعن ذلك يقول داود النبى : « عجيبة هذه المعرفة فوق . ارتفعت لا أستطيعها (مز ١٣٩ : ٦) .

٥ ــ قدرة الله ــ بالنسبة لأعمال العناية :

وهذه صفة ثابتة بثبوتها انتفى عنه تعالى العجز بكل حال وعلى كل وجه حتى أن لا شيء فى الكون بأسره فوق قدرته ولكنه يعمل فقط كل ما يتفق مع طبيعته لأنه لا يعمل شيئا ضد طبيعته : فقدرته منزهة عن عمل أى شر ولكن لها السيادة على كل عمل ، والتحكم فى كل ما يمكن عمله ! لأنه إذ هو خالق العالم والحافظ والمدبر له بالطبع قدير بقدرة لا حد لها ولذلك لا يمكن أن يكون هناك شيء فى الكون لا تستطيع قدرته أن تضبطه أو تديره .

والكتاب المقدس ينص على هذه الحقيقة فقد قال فيه لخليله ابراهيم : « أنا الله القدير

سر أمامى وكن كاملا » (تكوين ١٧ : ١) وبعد ذلك بقليل أمام أمر معتبر مستحيل نقرأ قوله تعالى « هل يستحيل على الرب شيء » (١٨ : ١٤) وفى نفس السفر جاء وصفه « بأنه الله القادر على كل شيء » (٤٨ : ٣) وفى سفر أيوب نجد هذا الاعتراف . « قد علمت أنك تستطيع كل شيء ولا يعسر عليك أمر » (٤٢ : ٢) وقد ذكر أرمياء النبى قوة الله العظيمة فى صنع السموات والأرض مؤيدة بإقرار مماثل وهو « لا يعسر عليك شيء » (٣٢ : ١٧) ونقرأ فى نبوة دانيال القول : « هو يفعل ما يشاء فى جند السماء وسكان الأرض ولا يوجد من يمنع يده أو يقول له ماذا تفعل (٤ : ٣٥) وفى العهد الجديد نقرأ . « كل شيء مستطاع عند الله » (متى ١٩ : ٢٦) وأيضا « ليس شيء غير ممكن لدى الله » (لوقا ١ : ٣٥) كما ورد فيه « أنه حامل كل الأشياء بكلمة قدرته » (عبرانيين ١: ٣) .

ونحن نقف موقف الخشوع والوقار أمام قدرته . فالله فقط هو القدير ماشاء كان وما لم يشأ أن يكون لم يكن ، والشيطان لا يستطيع أن يعمل شيئا بدون سماحه وقدرة الله مع أن معناها أنه يستطيع عمل ما يريد . ولكنها لا تقبل الشر ولا ترضى بالظلم !

• • •

الفصـــل الرابـــع
الصفـــات الأدبيـــة

ما هى الصفات الأدبية ؟

الصفات الأدبية هى كل وصف اتصف به الله ودل على مفهوم يقتضيه الكمال باعتبار أنه تعالى أسمى الكائنات على الاطلاق فاستحق الأسماء والصفات بهويته . فيتصور بكل صورة يقتضيها كل معنى فيه .

وهذه الصفات ــ بنوع خاص ــ هى التى انطبعت انعكاساتها فى خصائص ونعوت الكائنات العاقلة ــ أى الملائكه والبشر ــ باعتبارها كائنات أدبية . ولا يوجد ما يبرر نفى هذه الصفات عنه تعالى لأى سبب ، لأننا إذا نفيناها عنه وجب أن ننفى أيضا إمكانية قيامه بأى عمل من الأعمال وهذا ما لا يقوله انسان يؤمن بكمال الله المطلق التام .

ولقد زعم الماديون إننا نسبنا هذه الصفات لله وخلعناها وهماً عليه ويتعالى الله عن قولهم هذا ، لأن الصفات الأدبية فى المخلوق المحدود نسبية ولا يمكن أن تعتبر مقياساً للصفات الأدبية فى الخالق غير المحدود .

والمنطق السليم يقضى بأن الصفات الإلهية هى التى يجب أن تكون مقياسا للكائنات التى قد طبعت على نمطها . فالادعاء بأن الانسان يخلع صفاته المحدودة على ذات الله غير المحدودة وهم باطل وإنما نحن البشر قد فطرنا على الصفات الأدبية السامية التى تتصف بها الذات الإلهية بحالة مطلقة .

ومن ثم فإن الصفات التى يتصف بها الله ليست كالصفات التى تتصف بها المخلوقات محدودة فى قوتها أو فاعليتها ، واتصافه تعالى بها لا يدل على أنه محدود من أية ناحية من النواحى ! فهذه الصفات غير محدودة فيه وهى أصلية لأنها موجودة وعاملة أزلا قبل وجود الكائنات وذلك لأنه تعالى كامل فى ذاته كل الكمال ولا يكتسب شيئا من الخصائص أو الصفات بأى حال من الأحوال !

• • •

ولقد اتجه البعض إلى اعتبار هذه الصفات على غير المعنى الحرفى خشية تطبيق صفات المحدث المتناهى على الذات الإلهية وذلك لمنع أى تشابه بين المتناهى المحدث ، واللامتناهى القديم ؛ وهم يقاومون بشدة كل تشبية بين الله والمخلوقات وينتهون إلى أن كل فكرة نحاول أن نكونها عن الله مبتدئين بالكائنات المتناهية المحدثة هى فكرة مغلوطة وغير حقيقية لأن الله ــ حسب رأيهم ــ ليس حائزا على صفات المخلوقات حتى لو بلغت هذه الصفات درجة الكمال ؛ وهم يتجنبون مثل هذا القول لئلا ينتهى إلى القول بالحلول أعنى أن الله هو مجموع الصفات التى فى الكائنات ، بالغة درجة الكمال .

ولكننا عندما نحاول نفى عقيدة التشبيه سنجد ان اطلاق هذه الصفات عليه تعالى باعتبار يختلف عن ذاك الذى نطلقها به على غيره أو بتعبير آخر بمعنى يختلف عن ذات المعنى الذى يفهم منها يجعل الله غير مدرك لدينا . وبما أن غرضه تعالى من الاعلان عن ذاته هو أن ندركه على حقيقته اذن لا شك فى أنه قصد بالصفات التى أعلن أنه متصف بها نفس المعانى التى نفهمها منها لكن طبعا بدرجة تتناسب معه . فمثلاً عندما أعلن لنا أنه رحوم لا يمكن أن يكون قد قصد بذلك إلا أنه رحوم بالمعنى المفهوم لدينا إنما بدرجة تتوافق مع كماله الذى لا حد له ؛ وبذلك تسقط حجة القائلين أن صفات الله تطلق عليه باعتبار غير الذى تطلق به على الكائنات فالقول أن اسم الرحيم فى الله غيره فى الانسان الرحيم قول غير صحيح وهكذا الحال فى الصفات الأخرى ، دون أن ينفى ذلك أن التشبيه هنا إنما هو مع الفارق !

ولقد أقرت الصوفية بوجود شبه بين الله والانسان يعطى بحسب مبدأ التشبيه مماثلة فى ناحية ومفارقة فى ناحية أخرى بين المشبه والمشبه به ! وذلك على أساس وصف الله تعالى بأنه كائن حى عليم قادر مريد وهلم جرا ؛ فهذا يثبت له أوجه شبه لا أوجه مخالفة مجردة . ولا فائدة من القول أن لا شبه بين علم الله وعلمنا لأن علمه تعالى يفوق علمنا ولا يمكن أن يقاس ، والحق أنه لو لم يكن هنالك شبه فلماذا يدعى العلمين باسم واحد ؟ وكذلك فى غير ذلك من الصفات الأدبية إذ كيف يصح إطلاق اسم مشترك على بعض صفات الناس وصفاته تعالى !؟

ومرجع هذا لكون الله خلق الانسان على صورته وحلاه بأوصافه فهو الحى والانسان حى وهو العليم والانسان عليم وهو القديم والانسان قديم باعتبار أنه موجود فى علمه وعلمه ما فارقه منذ كان ...

وهذا كل ما استطعنا إدراكه عن صفات الله من الناحية الأدبية ولكن ما عرفناه عنها قد كشف لنا العلاقة الحقيقية التى بينه تعالى وبين الكائنات وكيفية سير أعماله معها !!

كمال التوافق بين هذه الصفات :

عرفنا أن صفات الله ليست كصفات البشر إذ أن كل صفة منها تامه الكمال فى ذاتها إلى غير حد ولكن كيف يعمل الله بحسب صفاته دون أن يكون هناك تعارض بينها على الاطلاق ؟ لأنه بالنسبة لكمال صفاته تعالى غير المحدود لا يمكن أن تغلب صفة فيه أخرى بل لا بد أن تكون صفاته الأدبية هذه متوازية تماما فيما بينها ورغم اختلافها فإن بينها كمال الانسجام والاتفاق : لأن العدل ــ ومنه الاعتدال معناه أن جميع صفات الشخص متساوية لا تزيد واحدة منها أو تنقص .

ولقد ارتأى بعضهم بأن كل صفة من صفاته هى عين الأخرى ولكن كيف تكون صفة النقمة هى بعينها صفة النعمة فيه تعالى وهكذا لأن هذا الكلام ينعدم فيه التمييز بين الصفات الالهية . وأهم هذه الصفات العدل والبر وهما يوازيان فى المعنى صفة القداسة ؛ والصدق والأمانة وهما يوازيان صفة الحق ، والرحمة والصلاح وهما يوازيان صفة المحبة ولكن كيف يتم التوافق بين هذه الصفات وهى متمايزة !؟

لنبدأ مثلاً بالصفة الأدبية التى تعتبر الأولى وهى قداسته تعالى : ونحن نجد أنها قداسة مطلقة وبحسب تعريف الكتاب المقدس نجد أنها نور كلى بينما الخطية فى كل مظاهرها ظلمة . وكما أن النور والظلمة لا يقدران أن يبقيا معاً فى وقت واحد ومكان واحد . هكذا القداسة والخطية لايمكن أن يوجدا معاً . وهذا هو السبب الذى لأجله تبدو الخطية قبيحة فى نظر الله القدوس لا يمكنه أن يهملها أو يجهلها مهما تكن طفيفة زهيدة فى نظر الناس . ولهذا السبب أيضاً استدعى الأمر أن يدبر الله الطريقة الوحيدة الفعالة للتطهير من تلويث الخطيئة ونجاستها .

وهذا يأتى بنا إلى ما تقوم به قداسة الله أى صفتى العدل والبر : والعدل معناه أن كل ما يعمله الله إنما يكون بدون محاباه أو محسوبية . والبر معناه عدم امكانية استمالته تعالى أو استرضائه بأى شىء لا يوافق قداسته المطلقة . فالعدل معناه قداسته فى العمل والبر معناه مساواته فى المعاملات بين الخلائق ــ لذلك وصف هذا البر بأنه فائق الحد أبدى وقائم إلى الأبد بل انه قاعدة كرسى الله ــ وكيف نوفق بين قداسة الله التى تقوم بالعدل والبر ومحبته التى تقوم بالرحمة والصلاح نحو خلائقه الشقية !؟ فإن هذه المحبة تجعله تعالى :

« يشرق شمسه على الأشرار والصالحين ويمطرُ على الأبرار والظالمين » (متى ٥ : ٤٥)

• • •

يتطلب عدل الله أن الخاطىء الغير تائب يدان ويعاقب ولكن حتى الخاطىء الذى تاب عن خطاياه فإن العدل يستوجب عقابه على الخطايا التى ارتكبها .

ولكن رحمة الله تطلب مصلحة الخاطىء وعدم محاسبته على الخطية والترحيب به عند عودته بالتوبة بل وحتى إلى غير التائبين تظهر هذه الرحمة فى صبر الله وطول أناته فانه لا يعاقب الخاطىء فوراً ولكنه كثيراً ما يمد له فرصة التوبة .

ومحال أن يكون الله كالبشر فإنهم تارة يصفحون تحت تأثير العواطف البشرية دون أن يكون هناك مبرر كاف للصفح وتارة يعاقبون تحت تأثير مصلحتهم الشخصية دون أن يكون هناك مبرر كاف للعقاب .

أما الله فحاشا له أن يكون متساهلا بالانقياد وراء رحمته دون عدله فى حالة الصفح أو صارما بتمسكه بحقه دون رحمته فى حالة العقوبة ولذلك فإنه لا يصفح ولا يعاقب إلا قانونيا : فهو رحمن رحيم ولكنه أيضاً عادل عدول ولا يستطيع لذلك أن يصفح عنا بدون تعويض قانونى ولكن من الجهة الأخرى لا يوجد مانع قانونى أمام العدل الإلهى يمنع وجود نائب يقوم بتقديم هذا التعويض إذا قبل هذه المهمة وكان كفؤا لها . **وبغير ذلك لا يستطيع الله أن يصفح عنا لأنه لا يستطيع أن يعمل عملاً يخالف صفاته فهو لذلك لا يمكن أن يكون متساهلا (غير عادل) لأن العدل صفة ثابتة فيه لذلك لا يمكنا النجاة من قصاص خطايانا ما لم يقدم عنا التعويض القانونى ، ولو تنازل عن حقه لعجزنا لكان ذلك التنازل اضطراريا وحاشا لله أن يرغم على القيام بعمل ما** ــ لقد كان من الممكن حقاً أن عدل الله يتخلص من الخاطىء نفسه ولكن أين تكون ــ رحمته حينئذ بل وكيف يتم التوافق حينئذ بين صفتى المحبة والقداسة فى طبيعته ؟

إن تعدى الناموس إهانة لله (رومية ٢ : ٢٣) والله مرتبط بصفاته الأدبية وليست هذه قوانين متغيرة ؛ فهو قادر ولكن ليس على حساب عدله الذى أمر أن تعطى نفسا بنفس ــ **فإذا عفا عن المذنب بمقتضى رحمته فعدله لا يأخذ مجراه ، كما أنه إذا قاص المذنب بمقتضى عدله فرحمته لا تأخذ مجراها ، ولا ينتظر أن رحمته تأخذ مفعولها دون عدله ؛ ولا عدله يأخذ مفعوله دون رحمته ، فإن عدله غير محدود وغير متغير ، ورحمته**

كذلك غير محدودة وغير متغيرة ، فإذا أراد أن يعفو عن المذنب من القصاص بموجب رحمته يقتضى أن يستوفى عدله أولا لكى يكون عادلاً ورحيماً حينما يصفح ويرفع القصاص المستحق !!

• • •

إذن فالعدل والرحمة صفتان متناقضتان بل ضدان لا يجتمعان فإذا تنفذ حكم العدل فى الخطاة أين الرحمة ؟ وإذا غفرت الرحمة فأين العدل ؟ أو بتعبير آخر كيف يكون الله منتقماً وغافراً معاً ؟ إن الجواب واضح وقد جاء أيضاً فى القول أن لا ملجأ من الله إلا إليه (التوبة ١١٩)

ومعنى ذلك أن هناك طريقة دبرها الله تجمع بين العدل والرحمة وهى الافتداء أو البدلية وبها لم تغطى صفة الرحمة على صفة العدل ولا صفة العدل على صفة الرحمة، وهكذا تم تلاقى العدل والرحمة فى كفارة الصليب ! وظهر مجد الله بصورة عجيبة تفوق عقول البشر وتليق بجلاله تعالى .

وهكذا أثبت الصليب كمال التوافق بين صفات الله إذ أظهر كل مجده بصورة لم يكن ممكنا لأى خليقة أن تفعله فقد أعلن كل حقه لأنه نطق بحكم الموت ونفذ ذلك بأسمى طريقة ، وهكذا ظهر عدله ضد الخطية ومحبته غير المتناهية نحو الخاطىء . وتدعم بذلك جلال عدله وشرفه الإلهى لأن أى شىء كان يمكن أن يمجد كل هذه الكمالات التى لله إلا موت يسوع الكفارى وحده ؟

وهكذا فى باقى صفات الله المتقابلة فإنها متوافقة معا كل التوافق مثل القوة والصبر : والعظمة والوداعة ، والصرامة واللطف ؛ وغير ذلك من الصفات التى ترى فى تقابلها دواعى الكمال الإلهى وفى انسجامها فعل المحبة الإلهية ، وهى بتمامها قد ظهرت فى تجسد الابن الحبيب وتجلت فى زروتها فى نقطة الصليب !

وهكذا اتحدت كافة الصفات الأكملية فى الذات العلية اتحاداً مباشراً فعليا فيما بينهما وذلك رغم ما يبدو من اختلاف بين تلك الكمالات وذلك لوجود الأقانيم الإلهية واتحادها فى جوهر اللاهوت الواحد .

العجز عن إدراك صفات الله ودلالته :

لا شك أن ادراك صفات الله من بين الأمور التى تعجز عقول الأنام عن معرفتها لأنه تعالى ليْس له شبيه حتى يمكن وصفه وصفاً كاملاً .

ونحن نرجع فى معرفة الأمور الإلهية إلى الوحى الذى أفادنا بما يلزم وجوب إدراكه عنها لأن البحث العقلى قد أوجد حولها جدل كبير .

ولكننا إزاء عجزنا عن معرفة ذات الحق تعالى وجب بنا ترك التأويل والتسليم بما أعلنه الله مما يجب الاعتقاد به مستندين فى ذلك إلى تصريحات الكتاب المقدس لأن هذا أذكى بنا وأولى .

فمثلاً عند البحث فى صفة العلم ! قال ابن سينا « الله لا يعلم إلا الكليات » بينما قال ابن رشد « الله لا يعلم الكليات ولا يحيط بالجزئيات لأن الذات الإلهية منزهة عن كليهما » وبينما يقول أحدهم : « أن الله لا ينزل إلى تعقل شىء غير ذاته الكاملة لأنها الموضوع الوحيد الجدير بسموه وكماله » يقول آخر « إن الله لا يعلم ذاته لأن من شرط المعلوم عنده أن يكون غير العالم به وهذا يؤدى إلى التعدد فى ذاته »

وكل هذا الجدل دار حول صفة العلم !

وقد دار جدل مماثل حول صفة القدرة وهل تحتم تنفيذ ما سبق فى علم الله أن يكون أم يجوز غير ذلك . أما عن صفة الارادة فهو تعالى كالفاعل لا بد وأن يكون مريداً مختاراً وعالماً لما يريده ، وبالتالى فعال لما يريد . لم يزل سبحانه موصوفاً بهذه الارادة أزلاً والعالم معدوم غير موجود أوجده عن العلم والارادة المنزهة الأزلية القاضية على العالم بما أوجدته عليه من زمان ومكان . فلا مريد فى الوجود وعلى الحقيقة سواه ــ فهو تعالى لا يمكن أن يكون قد قام بخلق العالم وبعث الحياة فيه مرغما لأنه بوصفه الأزلى وحده ليس هناك ما أو من يرغمه على عمل شىء من الأشياء . إذن لا شك فى أنه قام بذلك بمحض ارادته واختياره . قال توما الاكوينى : « إن الارادة هى الميل إلى الخير المعقول ومحبة هذا الخير متى حصل ، والله يريد ذاته بالضرورة على أنها خير ــ ولذلك فإنها الموضوع الخاص لارادته ؛ ويريد غيره بالاختيار لأن من شأن الخير أن يشترك الغير فى خيره »

هذه لمحة تبين العجز عن ادراك صفات الله وتدل على أن البحث فى ذات الله العلية وصفاته الأكملية هو فوق العقول لأنه كيف يمكن أن يعرف الخالق الغير محدود ... مخلوق محدود !!؟

البـــاب الثـــالث
الفصـــــل الأول
كيفيـــة رؤيـــة الله

١ ــ استحالة رؤية ذات الله

لا شك أن موضوع رؤية الله لا يفوقه فى الأهمية شىء ولذلك فقد انشغل به الباحثون فى الإلهيات . ولقد قرروا بالاجماع بأننا لا نستطيع أن نقول ما هو ولا كيف ولا أين هو لأن ذلك سر لا يمكن ادراكه ولا الإحاطه به إذ هو يفوق كل ذكاء ويتعدى حدود كل منطق . ولذلك قال ايرينوس (إن الجوهر الإلهى لا يدرك) وكذلك قال القديس إغريغوريوس : (إننا لا نستطيع أن ننكر بأننا نجهل جوهر الله) .

وليس ما نشاهده فى الكون إلا مظاهر وآثار لوجوده تعالى دون أن يكون ذلك رؤية تنصب على ذاته وجوهره ! وهذا ليس بمستغرب إذ أن معرفة الانسان ناقصة ؛ ومنتهى علمه قاصر وبصره محدود القوة والمدى بل أنه مازال عاجزاً عن رؤية كثير من الأشياء يزخر بها الوجود رغم ما لها من أجسام وأشكال وهياكل وصور مادية وتكوين ملموس ؛ ومادامت الرؤية المباشرة لهذه الأشياء فى جوهرها مستحيلة **فلا عجب أن تكون المشاهدة المباشرة للذات الإلهية مستحيلة كلية (ومن ثم يستحيل معرفة الله على أى شكل يكون لا بعقل ولا بخيال ولا بحواس ، لا بعين خارجية ولا بعين داخلية ، ولا بأى نوع من الادراك** ! وفى ذلك يقول **اكليمنضس** الاسكندرى : (ليس لله تعالى شكل ولا إحتياج وهو خارج الزمن والمسافة) .

وقال **افلوطين** فى اوائل القرن الثالث الميلادى : (إن الله جوهر سابق لكل الأشياء ، لا يعتمد على أى شىء منها ... لا توجد كلمات تستطيع أن تصفه لأن كل وصف له يحدده ؛ وأى مقارنة عنه فيما يختص بالجمال والكمال والعقل هى ادراكات بشرية استعارية ولكنها تنقص عن أن تصف تماماً جوهر الله إذ لا وجه للشبه فيما بين الخالق والمخلوق !)

ومع ذلك ليس وجود الله تعالى هو الوجود الوحيد الذى لا يمكن رؤيته بالعيان أو بالمنظار أو اكتشافه بالطرق الطبيعية **بل أن عقل الانسان وروحه لا يمكن رؤيتهما ولكن**

ذلك لا يقوم دليلاً على عدم وجودهما فكم بالحرى الله وهو جوهر غير مادى لذلك لا يمكن للعيون المجردة أن تراه ولا للحواس الطبيعية أن تفهمه تعالى ، فهو اسمى من جميع ادراكات العقل البشرى ، واللغة البشرية نفسها عاجزة عن التعبير عنه مهما بحثت عن اصطلاحات إذ ليس فى مقدورها أن تصفه تماماً فليس أحد يراه ولا أحد يدركه على حين أنه حاضر دائماً بيننا فى كل مكان .

• • •

لذلك وجدنا الانجيل يصرح بهذه الحقيقة بالقول : (أن الله لم يره أحد قط) (يوحنا ١ : ١٨) أى بجوهره وذاته . وقد قال لكليمه موسى فى التوراه حين طلب أن يراه : (أن الانسان لا يرانى ويعيش) (خروج ٢٣ : ٢٠) .

ومن ثم يشهد عنه تعالى الوحى بالقول : (ساكناً فى نور لا يدنى منه الذى لم يره أحد من الناس ولا يقدر أن يراه الذى له الكرامة والقدرة الأبدية آمين) (اتى ٦ : ١٦) والرؤية هنا هى الادراك بالبصر وتستعمل بمعنى العلم ، فيقال رأى ببصره رؤية ، ورأى من الرأى رأيا ، ورؤية العين هى التى يقال عنها **جهرة** : ويراد بها **المعرفة ، أى ما عرفه عارف فى وقت من الأوقات ولا ادركه فهو تعالى فى جوهره وكنه ذاته دائماً أبداً فوق البحث والرؤية بل هو فائق الوصف والمعرفة !** فمعرفة حقيقة الله لا يبلغها مخلوقاً ما لا من البشر ولا من الملائكة ولا يمكن طلبها لأنها لا توجد فليس بمقدور أحد من خلقه أن يراه بعينه وليس فى طاقة عيون الخلائق أن تحتمل التطلع إلى بهاء مجده !

ويعزز هذا القول ــ أى نفى رؤيه الجوهر الإلهى ــ ما بين الاعراض والجواهر من فرق : فإن الجوهر المجرد لا يمكن رؤيته بالابصار لأن الألوان والأشكال فقط هى التى يمكنها أن تؤثر على عضو البصر وتسبب فيه الرؤية والألوان والأشكال اعراض فإذا بصرنا لا يدرك سوى الاعراض ولا يمكنه أن يدرك الجواهر المعراة من كل عرض ــ وفى الله لا يوجد أى عرض لأنه تعالى ذات بسيطة ومجردة فكيف إذا يمكن القول بأنه يمكننا أن ندركه بالإبصار ؟ وعلى ذلك يكون الكلام فى إمكانية رؤية ذات الله مستلزم الاعتراف بوجود أعراض فى الله وهذا محال . ونظراً لأن الرؤية هى المقابلة أو اتصال شعاع بصر الرائى بالمرئى وذلك لا يجوز إلا لما هو مادى أو متصل بالمادة فإن الله يتعالى عن ذلك لما يترتب عليه من نتائج منافية لكماله تعالى ...

فإن احدى الاعتراضات على رؤية الله فى اليوم الأخير هو أنه إن كان الله يمكن رؤيته بالعين فهذا معناه أن ذاته تكون موجودة فى جهة معينة ومكان خاص والمتفق عليه أن رؤيته تعالى فى الآخرة تقع بلا كيف ولا انحصار فيرى سبحانه لا فى مكان ولا فى جهة من مقابلة أو اتصال أو شعاع أو ثبوت مسافة بين الرائى وبين الله تعالى بالنسبة لجوهره .

٢ ــ المظاهر المتنوعة لتجليات الله :

ثابت أنه ليس فى وسعنا نحن الذين نعيش فى عالم المادة **أن ندرك الله فى صورته الذاتية الحقيقية** وذلك لأن مقاييسنا مادية والله روح سام مطلق **بلا شكل معروف ولا قياس مألوف : لا حصر له ولا نهاية وليس كمثله شيء** وهذا هو التنزيه البالغ .

ولكن بجانب هذا التنزيه وجدنا لله تعالى مظاهر متنوعة تجلى فيها وأعلنها لنا الكتاب المقدس فكان أول ما أبدعه الله خلائقاً روحية مجردة من المادة وهى الملائكة وذلك لكى ترى الله بلطيف لطفها الروحانى لأن الله روح ؛ ورؤيتهم لله هى طعامهم الوحيد وهم دائمون على تسبيحه قدام عظمته يسترون وجوههم باجنحتهم وكذا يغطون أرجلهم وأظهرهم عند رؤياه ؛ وليس معنى ذلك أن لهم أجنحة أو أرجلاً أو ريشاً لأن تلك قوات غير منظورة للأعين الجسدية . وبنفس هذا النمط يكون التفكير فى الجالس على العرش الذى يمتنع ادراكه والدنو منه ــ فإنه لا يدرك ولا يدنى منه من تلك القوات غير المنظورة ولا يقاربهم مقاربة **وأما ما ظهر منه حينئذ من وجوده على عرش والسرافيم متطائرين حوله فليس هو بذات جوهره الفائق بما هو عليه فى ذاته لأن الله لا يجلس ولا ينحصر فى كرسى ولا يحوى فى مكان** ؛ فما يستطيعون أن يبصروه جالساً متمكناً على كرسى وهم حوله ــ **فما ذلك الذى رآه السرافيم إلا مظهر إلهى تجلى فيه الله واقترب به إليهم وهو ما سبق لنا فى كتاب الظهور الإلهى أن أطلقنا عليه تسمية « الصورة الشبهية »** ولكونهم لا يحتملون البرق الطافر من هناك إليهم نجدهم يحجبون أبصارهم بحواجز أجنحتهم ! وبذلك غطت السرافيم وجوهها من منظر بهائه ، كما غطى موسى وجهه فيما بعد وهو يتطلع إلى العليقة المشتعلة وخاف أن ينظر إلى الله وتعتبر العليقة إحدى المظاهر الواضحة التى تجلى فيها الله (انظر خروج ٣ وأيضاً أشعياء ٦) .

وسبب هذه التجليات أن الله فى ذاته ــ كالكائن المطلق ــ نور فائق اللمعان تعمى عيون المخلوقات إذا رأته مباشرة لذلك نجده يتجلى فى مظاهر قدر طاقة احتمال عيون الخلائق .

وقد تنازل الله تعالى للبشر بصفة خاصة وأظهر ذاته لهم فى طريقة يفهمونها بمساعدة الروح القدس الحال فيهم ؛ فظهر اللاهوت محتجباً فى الناسوت وهذه أسمى الطرق التى أعلن الله بها ذاته لنا وهى معلنة فى سر التجسد الإلهى !

ولقد اعترف فيلون بأن الذى ظهر لموسى كان مجد الرب أى المظهر المعروف « بالسكينة » وهذه اللفظة من أصل عبرى هو « **الشكينا** » **وهى** « **مظهر الله المجيد** » أو « مجد الحضور الإلهى » وترجمتها العربية « السكينة » فلم يكن بغريب أن يعلن الله صريحاً بأنه سيظهر شخصياً فى شكل إنسان يحل فيه « مجد الحضور الإلهى » بحسب مارآه اشعياء مما سبق وصفه وقد أكد البشير يوحنا تطبيق ذلك الوصف على المسيح (يوحنا ١٢ : ٣٩-٤١) .

وهذا كله يؤيد تجلياته للبشر بل ويؤكد إمكانية وصحة الظهورات الإلهية التى كان يتجلى فيها الإله من حين لآخر تمهيداً للتجسد الإلهى ــ **ومن ثم فالاعتراض على « الظهور الإلهى » ليس فى محله** ! ويتبعه أيضاً انتهاء الاعتراض الأساسى على التجسد وظهور الله إذ أصبح ولا موضع له **لأن التجريد المطلق الذى يتناقض مع تجليات الله وظهوراته وتجسده يجعل من الله تعالى لغزاً غير مفهوم ؟**

٣ ــ صور استعلانات الله :

رأينا أن الله تعالى يجمع بين التنزيه والتجلى وهو على ما تقتضيه ذاته من التجلى والاستتار والبطون والظهور لا يتغير ولا يتحول ولا يلبس شيئاً فيترك غيره ولا يخلع شيئاً فيأخذ سواه بل حكم ذاته هو على ما هو عليه منذ كان وهو متجل لنفسه بتجلى واحد فى الأزل بما هو متجل له فى الأبد : **وهذا هو المستأثر الذى لا يتجلى به لغيره فليس للخلق فيه نصيب البته لأن** هذا التجلى لا يقبل الاعتبار ولا الانقسام ولا الاضافه ولا الوصف ولا شىء من ذلك ! وهذه هى صورة اللاهوت الذاتية .

ولكنه تعالى قد رأى أن يتجلى للخلق وهو فى نفسه على ما هو عليه من تجليه لذاته الأمر الذى لا يشاركه فيه سواه ، وكانت طريقة تجليه لنا هى « صوراً » استعلن فيها وهى التى اقتضت النسب والاعتبارات والأضافات والأوصاف وأمثال ذلك بحكم صور استعلاناته هذه !

فما رآه ابراهيم وموسى وأشعيا وحزقيال ودانيال ويوحنا ليس سوى مظاهراً مختلفة **تجلى فيها الله بحسب ما فى حدود طاقة الاحتمال البشرى** .

فابراهيم الخليل رآه يشبه انسان زائر ؛ وموسى الكليم فى نقرة الجب رأى بحسب الادراك البشرى ــ ما وراءه تعالى ؛ بيد أن الله لا خلف له ؛ واشعياء رأى مظهراً آخر له تعالى وهو جالس على كرسى عال والسرافيم واقفون حوله ؛ بينما رأى حزقيال فى مظهر آخر الكاروبيم وفوق رؤوسهم شبه مقبب كمنظر البللور الهائل ، وفوق المقبب شبه عرش وعليه شبه كمنظر انسان عليه من فوق (حزقيال ص ١) وأما دانيال فقد رأى مظهراً آخر يختلف عما سبق ذكره فقد رأى جلوس القديم الأيام ولباسه أبيض كالثلج وشعر رأسه كالصوف النقى وبكراته نار متقدة ونهر نار جرى وخرج من قدامه (دانيال ص ٧) أما يوحنا فقد رأى مظهراً آخر يختلف عن كل هذا فرأى الجالس على العرش شبه حجر اليشب والعقيق وحوله أربعة وعشرون شيخاً ... قدام العرش (رؤيا ص ٤) .

وهذه المظاهر كلها لا تعنى رؤية ذات الله كما يتوهم البعض بل هى تجليات إلهية وظهورات كريمة قدر طاقة الاحتمال كما سبقت الاشاره . فلا عجب إذا من قول يوحنا الحبيب فى انجيله : « الله لم يره أحد قط » (يو ١ : ١٨)

وأما صور استعلاناته هذه فليست سوى تجليات وقتيه متنوعة لحين ظهور الابن الحبيب فى الجسد فهو الذى بلاهوته رأى وعرف فى الأزل كما أنه بناسوته أخبر وشهد بما رأى مما أمكننا فهمه عن هذه الأسرار الفائقة بحسب لغتنا البشرية القاصرة !

فهذا الظهور الإلهى ــ وهو أعظم اعلانات المسيحية ــ قد حقق لنا التجسد أى ظهور الله فى هيئة بشرية بعد سابق تجليه فى صور متنوعة ولا غرابة إذاً من ظهوره تعالى تدريجياً للأنبياء إلى أن حل بيننا ورأينا مجده العظيم .

الفصـــل الثـــانى
حـــدود رؤيـــة الله

١ ــ رؤية الله فى الحياة الحاضرة :

أجمع الرأى على أن رؤية الله جائزة عقلاً فى الدنيا والآخرة ، وأن لا مانع من هذه الرؤية فهى ممكنة عقلاً واجبة نقلاً .

ولقد آمن موسى الكليم بإمكانية رؤية الله وهو لم يكن يطلب شيئاً مستحيلاً لأنه وهو نبى لو فعل ذلك لأظهر جهلاً بالأمور الإلهية وهذا باطل . إذا فقد علم موسى أن رؤية الله ممكنة فطلبها قال « يارب أرنى مجدك » . **وأعلمه الله أن رؤيته فى الدنيا بالابصار لا تقع أن الإنسان فى تركيبه الحالى الضعيف لا يقوى على رؤية الله وذلك بقوله له : أن الانسان لا يرانى ويعيش .**

ومن ثم فإن رؤية الله عيانا فى الحياة الحاضرة بالعين المجردة غير ممكنة وأننا **لذلك نراه بقلوبنا** (أى نعرفه بالقلب فقط) وفسروا ذلك بأنه مجرد شعور داخلى بوجوده لا العلم علماً حقيقياً كاملاً وشاملاً بذاته لأن إدراك الله أو علمنا به أمر مستحيل لأن المخلوق المتناهى لا يمكنه أن يدرك الخالق اللامتناهى ! **وهذا يمنع العلم بماهية الله على الحقيقة والمشاهدة المباشرة لهذه الماهية بوجه عام وعلى الأخص فى الحياة الحاضرة !**

ومع ذلك فقد نادت الصوفية ــ وهى قديمة النشأة ــ بإمكانية مناجاة الله تعالى وحلوله فيهم . وتحمل لفظة « صوفى » معنى « الحكمة » بحسب اللغة اليونانية ، كما قد يكون معناها متخذ من لبس « الصوف » المغزول بيد الصوفى دلالة على الزهد والتقشف .

ومن الغريب أن استعمال عبارة التصوف قد ورد للمرة الأولى منسوباً إلى ديونيسيوس الاريوباغى الوارد ذكره فى سفر الأعمال ١٧ : ٣٤ وقد كان أسقفاً لأثينا فى القرن الأول للميلاد فى سفرين من المؤلفات المنسوبة إليه وهما « الاسماء ، الإلهية » و « الإلوهية التصوفية » ويقول ديونيسيوس هذا : (إن الانسان لكى يصل إلى الموجود يجب أن يجتاز الصور المحسوسة كما يجتاز تصورات العقل وأقيسته وهو يتحقق من ذلك الاجتياز عندما تهجر الروح كل شىء وتنسى عين ذاتها وتتحد بنور المجد الإلهى .)

ويقول سيلس الافلاطونى الاسكندرى فى حوار له مع اوريجانوس العالم المسيحى فى القرن الثانى أنه : (**من الممكن أن يصل بعض الناس إلى حالة الإشراق الذى يكشف له حجب المعرفة على شرط التخلص من عالم الحس ونفض غبار المادة** ــ فإذا أخمدت حياة الحواس ونظرت إلى أعلى **بعين العقل** وأدرت ظهرك للبدن فإنك **توقظ عين الروح وإذ ذاك فقط سترى الإله** .)

ولكن هذه ميزة المصطفين وعنها قال أفلاطون : (**إنه لعمل شاق أن يلتقى الانسان بخالق الكون ، وإذا التقى به فلا يمكن أن ينقل الصلة به إلى غيره** .)

ورؤية الله فى المعنى الصوفى واضحة عند **فيلون** الفيلسوف اليهودى فقد قال : (**أن معرفة الله هى رؤيته ولكنها رؤية صوفية** وشركة فطرية وكمال تأمل فوق العقل وإدراك مباشر لاعلانات سماوية) وقد تكلم أيضاً عن اختباره وكيف جاءه اعلان من الرب ورأى الكروبيم .

ويقول **افلوطين** الفيلسوف الاسكندرى عن **الرؤية التصوفية بأنها حق للكل ولكن البعض لا يقدرونها وهى تصحب بشعور الحب ومن الصعب وصفها لأنها اسمى من العقول** .

• • •

وجدير بالذكر أن التصوف وأساسه الدين قد قام على مبدأ إمكانية رؤية الله فى هذه الحياة ، لأن التحدث عن الله كمن هو جالس على عرش ملكه منفرد فى جلاله بعيد المنال لا يقربه أحد من خلائقه لم يشبع رغائب الانسان الروحية فهو اعتقاد رسمى مجرد من كل العوامل الروحية ؛ وأما اعلانه كآب فيعبر عن علاقات روحية حقيقية . **فإن صورة التنزيه البحت لا تشبع قلب الانسان الذى يصبو إلى المحبه بشهادة من تشبع بالروحانيات** . وهذا ظاهر فى الشغف بآداب الصوفية وقراءتها بكل هيام لأنه قد وجد فيها ما يقرب الأفكار إلى الله ويوطد الصلة بين الصوفيين وبينه : ومن الغريب أنه عند رواج الحركة الصوفية هذه وجد فيها أصحابها عاملاً قوياً **للتقرب إلى الله** . وقد ساد الاعتقاد بين الصوفيين أنهم مشبعون بالله ولهم حق مناجاته مباشرة حتى شهد عنهم **الغزالى** بالقول : « **أن الحجاب قد أزيل بينهم وبين الله وأنهم يرون الله ويتناجون معه وبأنه تعالى تكلم ويتكلم معهم** بكذا وكذا . »

وليس ذلك بمستغرب لرغبة الانسان أن يشبع أمياله وعواطفه الروحية. **باعتباره كائن روحى ولذلك اعتقدت الصوفية بالشهود الروحانى الذى يناله عدد قليل من المصطفين وذلك عند الوصول إلى الوحدة التامة بين الانسان وربه ...**

وليس الصوفى الحقيقى إلا الذى تنطق على لسانه الروح الإلهية ويرى فى غيبوبات أو يقظات مناظر روحية وتجليات إلهية تكشف عن الأسرار ؛ **وهذا كله يخالف التنزيه التام الذى يباعد بين الله والكائنات ويمنع رؤيته تماماً ، ولذلك كان من المستغرب أن تظهر الصوفية فى الاسلام وهى لا تطابق قواعده الأصلية ؛ ولكن ذلك سببه الحنين إلى رؤية الله فى هذه الحياة ويقرر ذلك الغزالى فى كتابيه (مكاشفة القلوب) و (احياء العلوم) .**

وبذلك تلتقى الصوفية فى نهاية المطاف بالمسيحية التى أعلنت إمكانية مناجاة الله فى هذه الحياة بمثل العبارات التى أوردها فى العصور الوسطى **القديس برنارد** فى عظاته على نشيد الانشاد ؛ تحقيقاً لوعد السيد المسيح بأن يظهر ذاته لمن يحبه (يو ١٤ ؛ ٢١) وقد أشار الرسول بولس إلى حصوله على (مناظر الرب وإعلاناته) (٢ كو ١٢ : ١) ولكنه يؤكد لنا : (بأننا ننظر الآن فى مرآة فى لغز لكن حينئذ وجها لوجه) (١ كو ١٣ : ١٢) **ومعنى ذلك أن المناظر التى نراها الآن مبهمة غير جلية لأننا ننظر فى مرآه غير شفافة هى عقولنا وقلوبنا التى تحتاج إلى أن تتنقى باستمرار فى الحياة الحاضرة : وهذا ما تحاول أن تبلغ إليه الصوفية بالتقشف وقمع الجسد ؛ ولكننا نبلغه فى الايمان المسيحى بالتفرغ من الذات والامتلاء من روح الله وهذا هو السر العجيب الذى به نتحد بالله من الآن . على أننا مهما تدرجنا فى حالات الشهود الروحانى فإن الغموض الذى فينا لن ينتهى منا فى الوقت الحاضر ووسائطنا قاصرة إلى أن يأتى الوقت المبارك الذى فيه نرى الله فى (المسيح) وجها لوجه !**

٢ ــ رؤية الله فى الحياة الأخرى :

لم يحدث صراع فى التاريخ بين النصيين والعقليين مثلما حدث حول رؤية الله فقد أنكرها البعض فى هذا العالم وأنكرها البعض الآخر فى هذا العالم وفى العالم الآخر ووافق البعض على الرؤية فى الحياة الحاضرة والأخرى .

وسبق أن رأينا أن البعض ينكرون رؤية الله بالعين العادية ويقرون رؤيته بالقلب **أى معرفته لا تجسيمه** لأن هذا يحتم وجوده فى جهة معينة حتى يمكن رؤيته وهذا يمنع ما له

من تنزيه تام إذ الجسم مركب من مادة وصورة وهو أيضاً منقسم قابل للتجزئة ...

ويرى بعضهم أن الله مرئى بالقلوب والابصار وذلك بواسطة قوة يجعلها الله فى خلقه لا يشترط فيها اتصال الأشعة ولا مقابلة المرئى ولا غير ذلك .

وهكذا إختلفت الآراء فى هذا الموضوع الخطير فمنها ما لا يجيز رؤية الله بتاتاً حيث لا تدركه الابصار ومنها ما يجيز هذه الرؤية وبحالة أوضح وأصح فى الحياة الأخرى : وهناك حديث خاص بكشف الحجاب لمن دخلوا الجنة فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم ، بينما يرى البعض أن رؤية الله يجب أن تقف عند حد معلوم لا تتعداه » لأن : (لله نيفا وسبعين حجابا من نور لو كشفها لاحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره) (الانسان الكامل ص ٣٠) وهذا يعنى أن الواصل إلى ذلك المقام لا يبقى له عين ولا أثر وهى الحالة التى تسميها الصوفية « المحق والسحق » ويسمون ذلك الحد « **سدرة المنتهى** » وهى نهاية المكان التى يبلغها المخلوق فى سيره إلى الله تعالى وما بعدها إلا المكانة المختصة بالحق تعالى وحده ليس لمخلوق هناك قدم لأن المخلوق هناك ملحق بالعدم ويبدو أن التفسير الصوفى لرؤية الله له دخل فى إنكار رؤيته بالعين الجسدية حتى قالت الصوفية بأن الله سيرى فى اليوم الأخير بحاسة سادسة !

• • •

وأما المسيحية فقد اعتبر معلموها الأولون أن رؤية الله هى ذات جوهر الخلود فذكروا بأن أسمى ما فى الحياة الأبدية غبطة رؤية الله والانجذاب إليه فهذه أعظم بركة فى الوجود إذ تبلغ بصاحبها أقصى حدود التأمل فيه وهو فى الحياة الأخرى يختلف فى الدرجة عن التأمل الصوفى لله فى الحياة الحاضرة فالتأمل فى هذه الحياة اسمى من المادة والاحساس ولكنه فى الحياة الأخرى لا يدرك ولا يوصف فهو مما لم تراه عين ولا سمعت به أذن ولا خطر على بال أحد .

ويرى **اغسطينوس بأن رؤية الله حالياً هى للنفس المفدية** إذ تكون فى كمال الاتحاد والمحبة والسرور بمشيئة الله على أساس تتويجها بمجبة المسيح الكفارية ولذلك قال : « **إن هذه الرؤية هى السلام الذى يفوق كل عقل !** »

ولقد تساءل البعض هل سيحتاج القديسون إلى عيون جسديةو لرؤية الله أم أنهم سيرونه

بعيون القلوب ؟ ويرى بعضهم بأن رؤية الله حين يتم التغيير فى الأجساد الخالدة الروحية عند القيامة **لا تتطلب أن تكون رؤية جسدية لأنها هى هى بعينها حتى لو كانت العيون مغلقة** كما رأى النبى اليشع جيحزى وكان ذلك بقلبه لكن ذلك لا ينفى ما للعيون الجديدة عند التغيير من قدرات خارقة !

ومع ذلك فإن لعيون الأجساد الجديدة وظيفتها أيضاً وستكون فى مكانها والروح يستخدمها فى الجسد الروحانى وهذا لا يناقض عيون القلوب التى ستكون مستنيرة تماماً حينئذ ؛ وليس هناك أدنى شك فى أن القديسين سينظرون الله بها تحقيقاً لقول السيد المسيح : « **طوبى للانقياء القلب لأنهم يعاينون الله** » (متى ٥ : ٨) أما عيون الأجساد الممجدة فهى التى قيل بشأنها : « وهم سينظرون وجهه » (رؤيا ٢٢ : ٤)

فسوف نرى الله بالفهم المتعلق بالطبيعة الروحانية وسيُعرف ويُرى بروح كل منا وفى كل فرد منا بل وفى كل شخص سيكون حينئذ موجوداً فى السموات والأرض الجديدتين ، وسنراه أيضاً بعيون الأجساد الجديدة التى ستكون موجودة بحالة كمال فى كل جسد ممجد !!

٣ ــ الطريق الوحيد إلى رؤية الله :

لقد تتبعنا مراحل البحث فى موضوع رؤية الله ورأينا أن ظهوره تعالى لا يمكن أن يتم بغير حجاب لأنه كما قال فيلون لا يمكن للكائنات أن تحتمل نور لمعانه الفائق بغير غطاء يحجبه عند ظهوره . قد رأينا من يقول **بوجود عشرات من أحجبة النور لمنع احتراق من يتقدم لرؤية الله التى يحجبها عن الناظرين مما يجب رفعه لجواز هذه الرؤية ... فإذا كان الأمر كذلك عند أهل التنزيه أفلا يكون من المناسب جداً عند ظهور اللاهوت أن يكون ذلك فى حجاب الناسوت حتى يقترب الله منا ويقرب لأفهامنا معرفته ولولا ذلك لما أمكن لمخلوق أن يرى الله بأى حال ولا بأى وجه لا فى الدنيا ولا فى الآخرة !**

ولقد اعترف بهذه الحقيقة أحد الربيين اليهود إذ قال : « إن شيئاً واحداً أيها المسيحيون تفضلون فيه علينا أننا عندما نتصور ذات الله تبدو لنا صورته غامضة مبهمة فى الذهن أما أنتم فتستطيعون رؤيته فى شخص المسيح . »

كذلك تحدث الغزالى عن رغبة كل تقى فى رؤية وجه الله فى الآخرة ولكنه استشعر صعوبة ذلك فقال : « هذا وقد تحيرت العقول فى كيفية رؤية الله عز وجل ! » فقد وعد الله تعالى الأبرار برؤيتهم أياه يوم القيامة ــ وهم سيلبسون يومئذ أجساداً جديدة سماوية

تقدر أن ترى الله دون أن تصعق بل تكون رؤيته تعالى هو اللذة الكبرى ــ ويقول البيضاوى : « **إنها تراه وهى مستقرة فى مطالعة جماله بحيث تغفل عما سواه** » **فكيف تتم هذه الرؤية إلا إذا ارتضى وهو غير منظور ــ لا ولن يُرى ــ أن يظهر محتجباً فى حجاب الناسوت !**

فالمسيح الذى هو الله المتجسد هو الرد القاطع على الحيرة التى تقررت فى موضوع رؤية الله ؛ لأنه إذ ظهر مرة فى عالمنا بالناسوت مظهراً بذلك اهتمامه البالغ بنا ، استطعنا أن نرى الله فيه وأن نلمسه فى اختباراتنا اليومية . وبذلك فقد انفرد السيد المسيح له المجد بتصريحات فى صدد رؤية الله لا يمكن أن يشاركه فيها أحد قط : « فهو الذى رأى الآب » (يو ٦ : ٤٩) وأعجب من ذلك قوله : « ان الذى رآنى فقد رأى الآب » (يو ١٤ : ٩) وذلك لأنه « صورة الله غير المنظور » (كو ١ : ١٥) وأيضاً « بهاء مجده ورسم جوهره » (عب ١ : ٣)

ومن ثم فقد أعلن يوحنا الرائى بأنه رأى العابدين حول العرش يسجدون ليسوع الحمل القائم فى وسط العرش كأنه مذبوح (رؤيا ٥) **ومعنى ذلك استحالة رؤية الله إلا فى شخص الفادى باستحقاق ذبيحته التى قدمها بروح أزلى وهى دائمة المفعول إلى الأبد .** ولذلك نجده يقول : « لا يستطيع أحد أن يأتى إلى الآب إلا بى » (يو ١٤: ٦)

ولهذا قال الصادهو سنرسنغ المسيحى الهندى فى كتابه « رؤى من العالم الروحى » : « **إن جميع من فى السماء يشعرون بحضور الله ولكن نظراً لكونه تعالى غير محدود فلا يمكن رؤيته إلا فى هيئة المسيح فقط وبدون ذلك تكون رؤيته أمراً مستحيلاً !!** »

« تــم الكتــاب بعونــه تعالــى »

رقم الإيداع : ٤٤٠٣ / ١٩٨٩

دار المنار العربى للطباعة
٢٣ شارع الظاهر – القاهرة ت: ٩٠٦٧٠٦

هـــذا الكتـــاب

هو درة نفائس اللغة العربية عن الله سبحانه وتعالى فى ضوء علم مقارنة الأديان وذلك لتوسيع الرؤية وتعميق الفهم وترسيخ الإدراك فى سائر الوجوه المختصة بجلاله ...

ولذلك فقد رجع مؤلفه عند وضعه إلى عديد من أبحاث علوم الكلام واللاهوت والفلسفة فى أهم مراجعها إذ أن موضوع هذا الكتاب ــ وهو أسمى موضوع ــ عن أعظم كائن فى الوجود « الله » أصل الوجود والذى استحدث كافة الكائنات منه الوجود ... !!

وهو بعد تقديم التعريف المناسب « للذات الإلهى » مأخوذاً من الأسماء الإلهية ، مع التنبير على اسمه الخاص الذى يدل على : « الوجود الدائم » لواجب الوجود ، ينتقل بك هذا الكتاب إلى كلمة موجزة عن : « الصفات الذاتية الثبوتية » ومن بعدها يقدم لك شرحا وافيا عن : « صفات الذات الإلهية ــ المطلقة والنسبية والأدبية ــ ثم يأخذك الكتاب فى ختامياته الرائعة إلى « رؤية الذات الإلهى » كيفية هذه الرؤية وحدودها فى هذا العالم والعالم الآخر ... وبذلك نستودع هذا الكتاب بين يدى القارىء الكريم إذ هو يتحدث عن نفسه للقلب والضمير كمنار هادى إلى مرفأ أمين ،

الثمن ١٠٠ قرش